شهادات فلسطينية

- سلمان ناطور
- محمد علي طه
- أنطوان شلحت
- عزت الغزاوي
- وسيم الكردي
- محمود أبو هشهش
- عبد الرحيم الشيخ
- عاطف أبو سيف
- أكرم مسلم
- أحمد يعقوب

أنا والانتفاضة والسائق الباكستاني

سلمان ناطور*

الصحف التي وزعتها علينا مضيفة الطائرة البريطانية، نشرت على صفحاتها الأولى صور الانتفاضة وعناوينها، من غزة إلى الناصرة، كانت الصور تقول كل شيء وركّاب الطائرة الذين تناولوا الصحف، لم يقلبوا الصفحات الأولى بسرعة، بل استوقفتهم دقائق طويلة.

ليس سهلاً أن تغادر وطنك وقد اشتعلت فيه النيران، وفي كل يوم يزيد منسوب الدم المسفوك على أرضه برصاص حي، وقنابل مدافع وصواريخ طائرات، ولكن، بما أن الرحلة ليست للاستجمام ولا للنقاهة، فإنك تستعد لأن تحمل نفسك أكثر من طاقتها وأن تتجاوز البرنامج المعدّ سلفاً، فتعوض عن الإحساس القاتل بالعجز بأن تتحوّل إلى صوت ينقل الغضب والألم والاحتجاج، يبدأ من جارتك على مقعد الطائرة، عجوز أمريكية في الستينيات، تقول لها: أنتم المسؤولون عن هذا الدم المسفوك بلا توقف، وهي تحاول التبرير والاعتذار وأنت لا تقبله وتعيدها إلى التاريخ.

أربعة أيام في لندن وخمسة في واشنطن وخمسة في نيويورك، وآلاف الأميال التي تبعدك عن الحدث الأقرب إليك. التكنولوجيا التي اختصرت كل المسافات جعلت قول الشاعر «جسدي في الغرب وقلبي في الشرق» ليس قولاً شاعرياً وحسب، بل صار يعني أنك في لحظات تعود إلى شرقك الحزين وفي لحظات تحضره إلى غرفتك على الشاشة الصغيرة، ثم تعيده إلى موقعه الطبيعي، لكنه في لندن يختلف عنه في واشنطن، وهنا يبدأ السؤال الأول: من أصدقاؤنا في الغرب ومن هم أعداؤنا، وهل لنا أصدقاء في هذه البلاد الباردة والصاخبة والضبابية؟

في الأيام الأولى، كانت أوروبا على الساحة، وكان يبدو أنها ستقول كلمتها بحزم بعد قرن من التأتأة، وكانت أمريكا تترقب وتنظر بشماتة إلى الجنازات الفلسطينية، وتتهيأ لإحباط كل قرارات الإدانة

الدولية، كيف لا وهي «الخصم والحكم»؟
في واشنطن تتساءل: ما هو السحر في هذه الدولة التي «تقتل القتيل وتمشي في جنازته» وتتغنى بالديمقراطية وحقوق الإنسان، ولا أحد أكثر منها يدعم انتهاكات حقوق الإنسان، لا بل قتل الإنسان.
يبدو أن الإحساس الجنوني بالعظمة لا يقود إلاّ إلى «التخبيص»، إلى فعل الشيء ونقيضه، إلى الانشغال بكبائر الأمور على حساب صغائرها، إلى تمجيد الإنسان وإذلاله، إلى انتصار الأسطورة.
واشنطن مدينة هادئة وجميلة، شوارعها واسعة وعماراتها ليست شاهقة، مظهرها أكذوبة دبلوماسية، ما في خارجها ليس ما هو في باطنها، ومن بعيد، تبدو أضخم من قريب، وأمام البيت الأبيض تجد من يقول لك برهبة إن في هذا المكان يتقرر مصير العالم، لكنك تعرف أيضا أن في هذا المكان لعقت فتاة لعوب قضيب الولايات المتحدة، وفي تلك البقعة تتساءل: هل يوجد أحد هنا، أي هناك في البيت الأبيض، يؤرقه دم الأطفال المسفوك في رام الله وخانيونس؟
مظاهرة المليون فقير كانت هنا، وكانت هناك مظاهرة الآلاف من أنصار الشعب الفلسطيني، في الشارع يحبوننا، لكن على تلة الكابيتول في الكونغرس، يحملوننا مسؤولية دمائنا التي تسفكها الصواريخ والرصاص المغلف بالمطاط أو العاري تماماً.
في الطريق إلى محاضرة في مؤسسة لحقوق الإنسان، أوقفنا سيارة تكسي.
كان السائق باكستانيا.. سألنا من أين نحن، فقلنا له: من فلسطين..
أبطأ السير ونظر إلينا مليّاً، كأنه لا يصدق، كرر السؤال وأعدنا الجواب..
«أريد أن أذهب إلى فلسطين لأقاتل معكم»..
قال وكأنه يطلب منا إذناً بدخول فلسطين، كأنه يقف على الحدود أو عند حاجز الرام.
«عائلتي في الباكستان، أنا وكل عائلتي على استعداد لنضحّي بأرواحنا من أجل فلسطين، أين العرب؟ أين المسلمون؟».
طمأنا السائق الباكستاني أننا ما زلنا نملك كل الطاقة والقوة لمواصلة الكفاح، وشكرناه على حماسه ونخوته.
كان العداد يسجل 9 دولارات عندما وصلنا.. سحبنا عشرة دولارات لنناوله، فرفض.
قال: «على حسابي، أنتم جئتم تناضلون هنا ولتكن هذه مساهمتي»..
ألقينا بالدولارات في حضنه فأعادها، وقال: هذا تبرع منّي للانتفاضة.
في المساء، كان منشداً على التقرير: هل سيأتي الفرج من هذا المؤتمر؟
«والله يا رفيق، لو أن هذه القمة تقدم للانتفاضة ما قدّمه لنا صديقنا الباكستاني، لأصبحنا بألف خير».
قلت للزميل، وصرنا نرزم حقائبنا للسفر إلى نيويورك، المدينة الصاخبة المجنونة، في الجادة الثالثة قرب هيئة الأمم المتحدة انطلقت مسيرة، شارك فيها حوالي مائة عربي، كلهم من الشبان والصبايا، تقدمهم ثلاثة يهود من المتدينين الأصوليين المناهضين للصهيونية، كانت المسيرة صامتة، وبين الحين والآخر، كان المتظاهرون يرددون «الله أكبر»، أكثر من ثلاثمائة شرطي كانوا يحرسون المظاهرة، لم يغلق الشاعر ولم تعطل حركة السير ولم يتوقف الأمريكيون ليسألوا: «شو السيرة؟».

نيويورك لا تسأل عنّا.
الأمم المتحدة لا تسأل.
إحساس قاتل بالغربة، تمثال الحريّة يبدو قزماً من البنايات الشاهقة. في الطابق الثلاثين يقع مكتب إحدى أكبر منظمات حقوق الإنسان، قال رئيس المنظمة عندما لاحظ انفعالنا من المكتب: من هذا المكتب الفخم، نحن ندافع عن فقراء العالم، هذا شيء من العبث، أليس كذلك؟
ضحكنا وضحك هو، ولم نعقب.
«هذه هي أمريكا، هذه هي أمريكا، انظروا من هنا إلى تمثال الحريّة كم يبدو تعيساً ووحيداً وصغيراً»، قال في محاولة للتخفيف من دهشتنا.
من بلادنا يبدو أصغر أيها الأمريكي الطيّب، أصغر بكثير مما تراه أنت من مكتبك الفخم.
وداعاً أمريكا.

---

* روائي وكاتب يقيم في الجليل.

يخافون الفجر الآتي

محمد علي طه*

طلب مني الصديقان الطيّبان الشاعران المتوكل طه وغسان زقطان شهادتي مكتوبة عن انتفاضة الأقصى. ولو كان المتوكل وغسان من رجال القانون، لطلب مني أن أدلي بشهادتي مشفوعة بالقسم. وحبذا لو كان ذلك، ففي هذه الأيام، أفضّل «الحكي» على الكتابة. فما أنا إلا واحد من أمة تجيد الكلام والخطابة والثرثرة. ولأن الكتابة مهنة شاقة «تطلّع الروح» أحياناً، فكّرت أن أكتب سطراً واحداً لا غير وأُريح وأستريح. أنا لا أعرف يا سادتي شهادة سوى شهادة لا إله إلا الله وشهادة أن محمداً رسول الله.. فأية شهادة تريدان مني؟

منذ شهرين، وأنا أبحث عن الشهادة، وهي تهرب مني، تفرّ مني مثل غزالة في جبال صحراوية تحتضن بحيرة لوط.

كل الشهادات تتقزّم أمام شهادة زهرة حمراء على روابي الجليل أو شهادة «نصبة» زيتون في جبال نابلس. ولا بأس من أن أعترف أمامكم، وأرجو ألاّ تنشروا اعترافي على صنوبر بيروت أو في صحيفة «الببغاء»، بأن فكرة جنّية أو شيطانية أو جنونية طالعة من الميثولوجيا اليونانية تلبّستني منذ شهرين، مع أنني، ودم الشهداء، لم أقرأ نصّاً معتّقاً منذ عام بل أكثر.

صدى الشهادة يلاحقني.. يطاردني، والموت صار عادة يومية. شهيد في معبر المنطار، وشهيدان في جنين، وشهيد رابع في الخليل، حل يرضيك يا إبراهيم؟ اللهم بارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد. كما باركت على سيدنا إبراهيم وآل سيدنا إبراهيم، في العالمين إنك حميد مجيد. أبناء عمومتنا يطلقون النار علينا يومياً في مدينة أبينا. ونحن نصلّي ونحمد الله تعالى لأن قتلانا اليوم أربعة وليس ثمانية، والمجزرة مستمرة، والتجميع قنوات وجداول.. والجنود يصطادون أولادنا كالعصافير،

والفضائيات تنقل صور الموتى بفرح، ولا أحد يوقف المجزرة.. أمريكا تلبس جلد التمساح والأوروبيون يتعهّدون، ومؤامرة الصمت تتسع خيوطها، فماذا أفعل!! ماذا يفعل مواطن بسيط مثلي! ماذا يفعل إنسان فلسطيني مثلي؟ هل أكتفي بكتابة مقالي الأسبوعي؟ من يقرأ مقالاتي؟ وعلى من تؤثر مقالتي؟ هل تنقذ مقالتي طفلاً فلسطينياً من القتل؟ هل تحمي شجرة زيتون في حوّارة؟ هل تطعم طفلة جائعة في مخيم جباليا؟

ما رأيكم بأن أدعو الصحافة ومراسلي الفضائيات العربية والأجنبية إلى مشهد مثير أمام باحة الكنيست الإسرائيلي.. وأحرف نفسي هناك على مرأى العالم احتجاجاً على السكوت العاهر والصمت الزاني الذي يمارسه العالم الحرّ.. أوروبا وأمريكا تجاه المجزرة اليومية التي يرتكبها باراك – موفاز ضد أطفال شعبي المحتل ونسائه وشبانه؟

قد يرى البعض أن الفكرة جنونية.. ولكن هل بقي شيء عقلاني في عالمنا؟

صدى الشهادة يلاحقني.

سألني الحاج يحيى والدموع تبلل شعرات لحيته البيضاء: «قل لي يا محمد! لماذا يقتلوننا؟».

كنا نشيع جنازة الشهيد الشاب رامز عباس بشناق في قرية كفر مندا. آلاف من البشر يهتفون «يا شهيد ارتاح ارتاح، واحنا حَ نكمل كفاح!!». نشر الحزن عمامة سوداء في فضاء البلدة. وتدفق الغضب من العيون. رامز بشناق إنسان عربي فلسطيني يحمل الهوية والمواطنة الإسرائيلية، عامل بسيط يعتاش من بيع الخضار والفواكه. تظاهر مع أهل بلدته ضد تدنيس الجنرال شارون، بطل مجازر قبية وصبرا وشاتيلا للمسجد الأقصى، الرمز الحضاري والوطني والديني لشعبنا الفلسطيني وأمتنا العربية.

رامز لم يهدد أمن دولة إسرائيل. لم يعترض دباباتها وجنودها. لم يهاجم مستوطنة، لا يحمل سلاحاً نارياً ولا سلاحاً أبيض. كان يحمل قلبه وروحه وغضبه، وربما كان يحمل، بسذاجة، اعتقاده بأنه مواطن.

هل نحن مواطنون في وطننا؟

الأرض تقول نعم، والزيتون الصابر والزعتر والقندول والسنديان يقول ألف نعم، والهواء والندى وعيون الماء والعصافير وعطر الفجر يعرفنا،

أما الحاكم، فيقول لا.

ملفاتهم السوداء؛ الملفات العسكرية والحزبية والحكومية تقول: إن بقاءنا في وطننا كان غلطة.. كان خطأ..

ومنذ اثنين وخمسين عاماً ونحن نخوض معركة البقاء في وطننا الحبيب. ومنذ اثنين وخمسين عاماً وهم يبحثون عن حلّ لتصحيح خطئهم الذي ارتكبوه!

يتعالون معنا كأيد عاملة رخيصة، نعدّ لهم صحن الحمص ورغيف الفلافل وننظف الشوارع من أوساخهم ونغسل الصحون والكؤوس في المطاعم والحانات.

وكلما «دق الكوز بالجرة» رشقونا بالتهم والشتائم، واليوم يرشقوننا بالرصاص.

عندما اجتمعنا، أعضاء لجنة المتابعة للجماهير العربية في إسرائيل، في قاعة مجلس كفر مندا في الفاتح

من أكتوبر وقررنا بالإجماع إضراباً عاماً للمواطنين العرب في إسرائيل ضد ممارسات باراك القمعية وتأييداً لشعبنا الفلسطيني في كفاحه العادل من أجل الحرية والاستقلال وكنس الاحتلال، أردنا أن يسمع باراك والشعب الإسرائيلي والعالم صوتنا، توخينا إضراباً سلمياً!! لم نفكر بنقل الانتفاضة من نابلس إلى سخنين أو من غزة إلى أم الفحم أو من رام الله إلى الناصرة.
نحن ندرك ونعي ظروفنا، ونعرف طاقتنا وحدودنا.
اعتقدنا أننا مواطنون في الدولة، يحق لنا أن نضرب وأن نتظاهر وأن نغلق الشوارع.
عمال مصنع الفولاذ والحديد في عكا تظاهروا وحرقوا إطارات السيّارات وأغلقوا الشارع الرئيس بين عكا وحيفا.. ولم تستعمل شرطة البروفيسور بن عامي الهراوات!!
حركة شاس أغلقت شوارع البلاد احتجاجاً على سجن زعيمها درعي المحكوم بالسجن بتهمة السرقة والغش والاختلاس ولم تستعمل شرطة إسرائيل رشاشات المياه لتفريقهم!!
سكان بلدة بيت شيمش أغلقوا شارع رقم 1 في إسرائيل الذي يربط تل أبيب بالقدس احتجاجاً على وضعهم الاجتماعي السيئ ولم يصفع شرطي مواطناً واحداً منهم.
باراك يقول لنا إننا مواطنون أعداء، وبن عامي يخلع رداءه الناعم ويصدر الأوامر لشرطة تقتلنا!
قبل عام فقط، أعطينا باراك 95٪ من أصواتنا في المعركة الانتخابية. لم نكن جاهلين.. ولا أغبياء.. ماذا تعني النياشين العديدة على كتفيه وصدره!!
نعرف من أطلق الرصاص على فم كمال ناصر، ونعرف من اغتال أبو جهاد!!
كان الخيار يومئذ صعباً، بين المرّ وبين الأمر منه، فرضينا بالمر.. ولكن المرّ لم يرض بنا.
وكافأنا باراك بأن حوّل كل صوت من أصواتنا الانتخابية إلى رصاصة تقتلنا.
قتلتنا سذاجتنا!
لماذا لم نسأل أنفسنا حينما قررنا التصويت لباراك سؤالاً بسيطاً؟ ولماذا لم نستمع لصدى الشهداء في الدوايمة والصفصاف وكفر قاسم ويوم الأرض؟
تاريخ حزب المباي وحفيده حزب العمل مكتوب بدمنا.
أشعر بندم.. وأعتذر عن سذاجتي!!
صورة الشهيد أسيل حسن عاصلة لن أنساها، أسيل طالب موهوب من عرابة البطوف، يحب الحاسوب ويكتب الشعر، كان مؤمناً بالتعايش العربي اليهودي.. وعضواً في جامعة «براعم السلام»، له أصدقاء يهود.. سافر معهم إلى البيت الأبيض وحاوروا كلينتون وشمعون بيريس وياسر عرفات.
كان أسيل يحب الحياة والسلام والورد.. ويكره العنف والحروب.
روى لي أصدقاؤه ومعارفه حينما كنا نشيع جثمانه الطاهر أن الفتى لم يشارك في المظاهرة ولم يرجم الجنود والشرطة بحجر!!
كان الفتى يراقب ما يدور بين الشرطة والشبان بأسى. وشاهد قربه علاء نصار جريحاً فاقترب لإسعافه، ألقى الجنود القبض على أسيل، ضربوه بأعقاب بنادقهم حتى انهار على الأرض.. وأطلقوا الرصاص على جسده الغض.. على براعم السلام.

قال أبوه، والحزن يعتصر قلبه والغضب يأكل كبده: ابني ليس شهيداً.. ابني قتيل!!
لماذا يقتلوننا؟؟
لماذا قتلوا أسيل.. وعلاء؟
هل نحن أعداء أم مواطنون؟
سخنين بلدة كبيرة مشهورة بكرم أهلها وشجاعتهم، قدمت الشهداء في ثورة 1936 وفي العام 1948، ودفعت مهراً غالياً في يوم الأرض. صادرت مكونات إسرائيل أراضيها وحاصرتها بالمستوطنات والمخيمات العسكرية حتى حولتها إلى «غيتو».
طاف المتظاهرون شوارع البلدة منددين بزيارة شارون للأقصى، متضامنين مع الأهل في القدس.. وتوجهوا إلى الجهة الغربية.. ولا شيء من الغرب يسرّ القلب.
الجنود يطلقون الرصاص الحيّ. ويسقط الشاب عماد غنايم مضرجاً بدمه. يتقدم الشاب وليد أبو صالح لإسعاف صديقه وجاره. ويقطف الجنود الزهرة عنوة.
في جنازة الشابين، بحثت عن عبد المنعم أبو صالح والد وليد الذي أعرفه منذ سنوات وتربطني به علاقة مودة. عبد المنعم إنسان يحبه الناس في سخنين والمنطقة، يشارك بصورة فعّالة في جميع الأعراس، يحب الطرب والغناء، فتراه يرقص ويدبك ويضحك، يفرح وينشر الفرح بين الناس.
شاهدت عبد المنعم الآخر.. عبد المنعم الصامت.. الساكت.. الحزين.. الباكي من دون دموع.. ومن عينيه كان يطل السؤال: لماذا يقتلوننا؟
بعد يومين، عدت إلى بيت عبد المنعم لأقدم له العزاء، وفي طريقي، عرجت على قبري وليد وعماد ونثرت عليهما حفنتي تراب من تراب بلدتي ميعار.
كانت ميعار جارة سخنين..
وكان الناس يحيون بعضهم.. وما زالوا يتحدثون بحسرة وألم عن تلك الأيام.
هدمت السلطات ميعار البلدة ومحتها عن خارطة الوطن، ولكنها لم تستطع أن تمحو ميعار البلد والأهل والناس والحب عن ذاكرة أهل ميعار.. ومن ذاكرة جيران ميعار..
عندما كنت جالساً في بيت العزاء، أسمع كلمات المعزين الروتينية، تذكرت أهازيج الشبان في الجنازة: «يا أم الشهيد زغرتي.. كل الشباب أولادك»، وتذكرت صورة أم وليد الباكية النائحة.. كيف تزغرد؟
لا.. أم الشهيد لا تزغرد.. إن الشهيد ثاكل ولا معنى لقولنا «كل الشباب أولادك»، أم الشهيد تعود إلى البيت فترى قميص ابنها وبنطاله وآلة الحلاقة وفرشاة الأسنان وكتبه ورسائله وتشمّ ما تبقى من رائحته. وتبكي.. لماذا قتلوا ابنها؟ القتلة..
والد الشهيد إياد صبحي لوابنة لاجئ من قرية المجيدل المهجرة والمهدومة يسكن مع أفراد عائلته في مدينة الناصرة.
السيد صبحي يتكلم بلهجة أخرى.
إياد ابني البكر.. كان عاملاً نشيطاً.. وإنساناً خلوقاً.. ساعد إخوته.. ضحّى من أجلهم.. وكان يقول لي ولأمه إنه سوف يستشهد في يوم ما.

عندما سمع خبر الأحداث في المدينة، ودعنا بسرعة وخرج من البيت.. حاولت أن أثنيه.. أن أمنعه.. كان عندي إحساس بأنه لن يعود، وصل إلى جوار سجن السلام.. التقى مع الجنود، أطلقوا عليه الرصاص.. استشهد إياد..

إياد قاتل.. ثم استشهد!

استشهد إياد في ساحة مسجد السلام.. استشهد السلام.. في مدينة السلام.. وسقطت ورقة التين عن عورة «واحة الديمقراطية» وعن «ثرى السلام»..

لماذا يقتلوننا؟

يقتلوننا لأنهم يخافون منا.. يقتلوننا لأنهم يعرفون من صاحب الأرض وصاحب الزيتون والصبّار. .. يقتلوننا لأنهم يعرفون من صاحب حوض النعناع.. يقتلوننا لأنهم أكلوا اللحم النيء ويخافون من وجع البطن.. إنهم يخافون.. يخافون.. يخافون.. يخافون الفجر البازغ.. الآتي.. الآتي..

---

* قاصّ وكاتب فلسطيني يقيم في الجليل.

انتفاضة فلسطينية ابنة يومين فقط في الجليل والمثلث والنقب، فضلاً عن الساحل، أعلنها «المواطنون العرب في إسرائيل» في أكتوبر الأسود 2000، بدت كافيةً لتزيّن في وعي مجموعة كبيرة من «حملة القلم» اليهود سبيل الانزياح التام عن «خطاب السلام» والانكفاء إلى فكرة «التبرّم» بالفلسطيني، بعد أن واراها هذا الخطاب لزمن ما خلف تعابير مزوّقة من الصعب حصرها، لكن من السهل استشعار إفراطها في التحايل على الواقع والنفوس.

لقد نجح هؤلاء، بامتياز، في جعلنا نسترجع صورة «فكرة التبرّم» هذه ونستعيد كونها، في الآن نفسه، متأصلة في منبت رؤوس الغالبية من «صنّاع» الرأي العام اليهودي، كتاباً ومحللين وصحافيين وباحثين وأكاديميين، بشكل لا يقدر عليه سلام مرتبط بتطبيق العدالة، فما بالك بـ«سلام» مرتبط بكل ما من شأنه النأي عن تطبيق العدالة!

إثبات هذا يكمن في طوفان، لم ينقطع حتى الآن من «مداخلات ساخنة» -لو جاز التعبير- غمر وسائل الإعلام الإسرائيلية المكتوبة باللغة العبرية حول ما سمي «انتفاضة المواطنين العرب في إسرائيل». وقد بدا معظم هذه المداخلات كما لو أنه اكتشف مناطق جديدة كان يجهلها حتى الآن أو لم يلمّ بها بما فيه الكفاية. وهو ما جعل مستشرقا ما يتباهى ببروز «وعي جديد»، مغاير لما كان سائداً من وعي، حيال الفلسطينيين في إسرائيل، لناحية تسلحه (الوعي الجديد) بـ«المعرفة» التي مؤداها أن هؤلاء «المواطنين العرب»، قلباً وقالباً، ليسوا على قدر من الولاء والإخلاص لـ«دولتهم»، حتى وهي متجهة نحو عقد سلام مع الشعب الفلسطيني، يوازي ولاءهم لفلسطين وقضيتها والصراع الدائر من أجل إيجاد حلّ لها.

إذا شئنا أن نستبق ما قيل بالأحكام، فإن ما أبانت عنه الانتفاضة، فيما هو مختص بجماهير الفلسطينيين في الداخل، بالنسبة لهذا القطاع من «صنّاع القرار» الإسرائيلي، على رغم كونه قطاعاً يفترض به أن

يتحلى بقدر أوليّ من التفكير المنطقي، هو الحكم بالسقوط المدوي للمثقف الإسرائيلي. وعندما أستعمل مصطلح مثقف، فعن وعي بما يعنيه هذا المصطلح، اجتماعياً وتاريخياً، من ضرورة الجمع بين المعرفة وممارسة المعرفة خارج مجال الاختصاص (في الشأن العام)، من جهة أولى، ومن ضرورة أن ينخرط المثقف، من جهة ثانية، في جهود «تدعيم السلطة المضادة» -أي المجتمع المدنيّ- التي تبقى الحاجة إليها ماسة للغاية في سبيل موازنة المجتمع السياسي الميّال بطبيعته إلى التجاوز والانتهاك، وبشكل خاص ضد الأقليات القومية والإثنية.

وقد وجدت نفسي أسبح في بعض موجات هذا الطوفان، المحايثة لفترة الانتفاضة الداخلية، فلا أعود منها إلا بما يضعنا، وجهاً لوجه، أمام أصول الأشياء.

لتوكيد العودة الصافية والصريحة إلى صورة «فكرة التبرّم» السالفة، لا نحتاج إلى أكثر من قراءة متأنية لبعض النصوص التي تحمل صفة تمثيلية، قراءة تدع «الحبل على غاربه» أمام متون النصوص ذاتها لتنبئ بمحمولاتها على نحو ما يلي:

1- تحت عنوان: «صدق المتشائمون» كتب يوئيل ماركوس (هآرتس 6/10/2000) ما يلي:

«إنه أمر مثير للغضب والإحباط، لكن صدق المتشائمون والمتطرفون، طوال سنوات عديدة، نط هؤلاء وعصبنوا الجميع بمقولتهم إن المشكلة الحقيقية ليست غير عرب إسرائيل، والآن بمقدور هؤلاء أن يقلّدوا أنفسهم ميدالية، ففي وقت تندلع فيه في المناطق (المحتلة والمحررة من دولة فلسطين العتيدة – أ.ش) مواجهات عنيفة بين جيشين غير متساويين، انفجرت الانتفاضة في مكان غير متوقع البتة.. داخل الدولة. مواطنو إسرائيل ضد مواطني إسرائيل.. عرب ضد يهود، إنهم يتماثلون بغلواء مع إخوانهم فيما وراء الخط الأخضر تحت شعار «الموت لليهود» ويشجّعون قيام دولة مستقلة بهتاف «بالروح بالدم نفديك يا فلسطين»، لكن، حتى الآن لم نشاهدهم يقفون في الطابور كي ينتقلوا للعيش في دولة أحلامهم الآخذة في التشكل والانبناء كما فعل يهود الدياسبورا في طريق إعداد العدة لإقامة دولة إسرائيل. إنهم يريدون أن يبقوا مواطنين في إسرائيل، لأن الوضع، ببساطة غير رهيب هنا».

وتابع: «ثمة خيط فاصل رفيع داخل دائرة الولاءات المزدوجة، هذا الخيط انقطع في الأسبوع الجاري، وما حصل، لم يكن طريقة احتجاج مألوفة في دولة ديمقراطية، إنما انتفاضة وصفها شلومو بن عامي بحق بأنها عصيان».

وقرر: «يتوجب على عرب إسرائيل أن يقرروا ماذا يريدون أن يكونوا: إما مواطني إسرائيل في كل شيء، دون أن يمس حقهم في إظهار الود لدولة فلسطينية آخذة في القيام في موازاة مع ما يفعله يهود أمريكا حيال إسرائيل، وإما أن يتصرفوا كما لو أنهم ذراع ضاربة مقاتلة للسلطة الفلسطينية، منعاً لأن نقول «طابور خامس» «خلف الخطوط»- داخل إسرائيل، أية دولة في العالم ليس بمقدورها أن تتحمل كون جزء من مواطنيها مهمازاً فيها، كقنبلة موقوتة لحرب أهلية».

2- تحت عنوان «ديمقراطية تدافع عن نفسها في حالة طوارئ»، كتب دان مرغليت

(هآرتس 5/10/2000) ما يلي:
أية دولة مستقرة في العالم، لا يمكنها أن تجيز لمتظاهرين رمي حجارة بالجملة وفتح نيران على أفراد الشرطة.
وإن النتائج التي تمثلت في إزهاق أرواح بشرية موجعة، لكن في التحصيل العام، نجح إيهود باراك وشلومو بن عامي في المحافظة على ذلك التوازن الدقيق بين الحساسية تجاه حياة الإنسان، وبين الإصرار على حفظ سلطة القانون، وهذا نهج لائق ومعقول، حتى لو وقعت في بعض الأماكن أمور شاذة تراجيدية.
وأضاف: «إن التماثل المطلق (مع شعبهم الفلسطيني- أ.ش)، وانعدام أي صوت في صفوفهم يطالب علانية بالكف عن العنف، يثيران الشك بأن عرب إسرائيل هم عنصر متآمر وتقويضي».

3- في العدد نفسه من هآرتس، نشرت الكاتبة أفيرامه غولان مقالة تحت عنوان «لكنهم إسرائيليون» افتتحتها بالعبارات الآتية: «في خضم الكراهية والنار، وإزاء الصمت الذي يلف المثقفين والشخصيات الجماهيرية العربية المعتدلة، من الصعوبة بمكان إظهار أي قدر من التفهم لانتفاضة عرب إسرائيل».

4- الكاتب والشاعر حاييم غوري كتب تحت عنوان «كل الجراح انفغرت» (معاريف 3/10/2000): «وجه الجار تكشف كوجه لعدو.. موجع جداً سلوك الكثيرين من عرب إسرائيل، لقد اعتدنا حتى الآن أن نراهم عرباً خاصتنا - إسرائيليين. وللأسف الشديد، فقد زادت لديهم الهوية الفلسطينية وتضاعف الاغتراب حيال إسرائيل بالتحديد عندماً حاول كثير من الإسرائيليين بناء مجتمع السقف الإسرائيلي، الذي يمنح الأقلية العربية كذلك مكانة أكثر احتراماً في دولة إسرائيل».

5- أستاذ الفلسفة الجامعي، البروفيسور يرمياهو يوفيل، كتب يقول (يديعوت أحرونوت 5/10/2000) «العرب، مواطني إسرائيل، خلعوا عن كاهلهم أي عبء مدني، لقد استغلوا بصورة سيئة الحرية المتاحة للمواطن، وركلوا الديمقراطية الإسرائيلية التي، رغم غبنهم الاقتصادي، لا تنفك تمنحهم مزيداً من الحريات والحقوق وإمكانيات النشاط الديمقراطي، أكثر مما في مقدور إخوانهم أن يحلموا في أية دولة عربية، بما في ذلك دولة أبناء شعبهم، فلسطين العتيدة».
وتابع: «يكون الجنون قد أمسك بتلابيب قادتهم إذا ما اعتقدوا أنه يجوز لهم شل الدولة بطرق عنيفة وإغلاق محاور طرق مواصلاتها واستعمال السلاح الناري ومهاجمة الشرطة وإحراق السيارات والبنوك، وكل ذلك في غمرة تصريحات معادية للدولة التي يعيشون فيها كمواطنين.
لا ينبغي أن تكون عنصرياً، بل يكفي أن تكون ديمقراطياً كي تقول لهؤلاء الأشخاص (ولعديمي المسؤولية الذين يلهبون غرائزهم): إنكم تحرقون البيت الذي تقطنون فيه. إن الشرط لممارسة الحقوق الديمقراطية هو المسؤولية عن الدولة المشتركة، وإذا ركلتموها، وإذا نكلتم بها بطرق عنيفة، فإنكم تصادرون من أنفسكم الشراكة الديمقراطية والحقوق المنوطة بها».

6- تحت عنوان «شانئون في البيت»، كتب الناقد والكاتب إيهود بن عيزر (هآرتس 10/10/2000) ما يلي:

«اعتقدنا أن ثمة مكاناً واحداً في العالم على الأقل هو إسرائيلي خالص، كله لنا ولا نقاش عليه، وهو بيت لنا سوية مع عرب إسرائيل باعتبارهم جزءاً غير منفصل من الحياة والحيّز الطبيعي فيه. وفجأة، إذا بهذا المكان يعجّ بطابور خامس: شانئون، أصحاب رؤوس حامية، لا يهمهم أن تدمّر دولة إسرائيل، ولو لم تكن لديها قوة عسكرية وبوليسية توقفهم عند حدهم، لكانوا أغرقوا تل أبيب أيضاً وأعملوا فيها حرقاً وتدميراً.. وإذا ما اعتقدنا في السابق أنه في الحروب القادمة سيلتزم عرب إسرائيل الصمت، فإن مثل هذا السيناريو يبدو الآن مستحيل التحقق. وهذا يبيّن أن الإحساس الأساسيّ الذي يتملكنا، يكون الخطر لا يزال يتهدد مجرّد وجودنا هنا هو إحساس صحيح، وهو يشكل الغطاء لجميع أخطائنا، بدءاً من المستوطنات، وانتهاءً بزيارة أريئيل شارون في المسجد الأقصى.

ولربما يجدر بنا أن «نشكر» شارون على زيارته هذه، لأنه بذلك أماط لنا اللثام عن الواقع الحقيقي الذي نحيا فيه، وكذلك عن الأخطار والتوقعات القاتمة حيال المستقبل.. ولا أعتقد أنني سأنسى ذات مرّة لعرب إسرائيل تلك الأيام التي حاولوا فيها أن يسحبوا لنا البلاد من تحت أقدامنا!».

عند هذا الحدّ، ينبغي علينا التدخل لتفنيد الزعم ببروز «وعي جديد»، الذي أسلفت الإشارة إليه. فما تعكسه المقبوسات أعلاه من مقولات تخصنا، لا تعدو كونها أكثر من فكرة راسخة وثابتة تنظم معظم مقاربات الخطاب الإسرائيلي، وبالتحديد في جانبيه الإعلامي والأكاديمي، المنصرفة منذ سنوات نحو «تحليل» مجتمعنا هنا في طقوسية متحجرة.

وبكلمات أخرى، يمكن القول: إن المقولات في هذا الشأن، كما في شأن قضية فلسطين عموماً، تمثل بجلاء عودة الوعي الإسرائيلي إلى زواياه الأشدّ عتمة وظلامية. وهي زوايا تظل العودة إليها بمثابة «ملاذ أخير» لجميع المغلولين بهذا الوعي التقليدي المتحجر كلما اتجهت الأمور صوب «حديث المستحقات»، من منظور الرؤية التاريخية والعدالة الإنسانية، يمكن، أيضاً، إضافة أن جميع هؤلاء يتجاهلون الأيدي التي بها كتبنا ونكتب. ومع ذلك، فإن أيديهم تشير إليهم كيف يمسحون ما لسنا نحن، وكيف يرسمون ما يريدون لنا أن نكون.

إن إحدى أكثر هذه الزوايا حطةً، زاوية أصحاب النزعة الثقافوية: تسويغ الصراع الفلسطيني الإسرائيلي من منظور عنصري فظّ يقول بوجود «تفاوت ثقافي» بين اليهودي، باعتباره منتمياً إلى «جنس حضاري علوي»، وبين «عدوّه» (العربي)، باعتباره منتمياً إلى «جنس سلفيّ دونيّ»!

إليكم، على سبيل المثال، بعض ما كتبه في هذا الصدد دافيد بوكاعي؛ أستاذ العلوم السياسية في جامعة حيفا، تحت عنوان: «هكذا يخدع أفراد اليسار أنفسهم - العرب لن يسلموا البتة مع وجود دولة يهودية» (هآرتس 12/10/2000):

«الإنسان الإسرائيلي لا يفهم أن الإشكالية الرئيسية في النزاع العربي - الإسرائيلي هي إشكالية ثقافية، وثمة جوانب واسعة لهذا الموضوع، في مقاربة الزمن وإدارة المفاوضات واحترام الاتفاقات. وهناك كذلك مشكلة مهمة هي مسألة «الذنب»، فإن اليهود مشغولون طوال الوقت بالقول: «أخطأنا، أثِمْنا، أجرمنا».

أما العرب، فالقول الدائم على لسانهم هو: «أنت مذنب». إنه مجتمع متمحور حول اتهام الخارج، ويتحرك حول مفصل ثالوث مفاهيمي: شرف، عار، انتقام. والشرف هو الأشد أهمية، حتى إنه أكثر أهمية من الحياة ذاتها، ولا وجود من دونه، لكن إذا تعرّض الشرف للمسّ به، يتسبب العار الذي يمكن منعه ومحوه بواسطة الانتقام. ودائماً أنت المذنب. يمكنكم أن تسألوا خبراء اللغة العربية كي تطلعوا على مسألة مثيرة: ليست في العربية كلمة تحمل دلالة «ندم» أو تبكيت ضمير، ثمة كلمات تتطرق إلى أمور مشابهة، لكنها بعيدة جداً عن تحديد الندم وتحمل الذنب، وبالتأكيد على المستوى القومي».
هذه المزاعم الأخيرة كذبة تثير القرف والاشمئزاز من هذا «الأستاذ» وأمثاله، وتؤكد أن التوجه العنصري الاستعلائي، الذي كان أساس النظرة الصهيونية إلى العرب والفلسطينيين، أضحى جزءاً من جِبِلّة بعض مفكريها وجرثومة تنغل في دمهم لا يستطيعون منها فكاكاً.
على الطرف الموازي، لكن غير المكمل تحديداً، لا بد من الإقرار بأن الأحداث الأخيرة، وأداء المواطنين العرب، وضعا أمام المحللين الإسرائيليين بعض الأسئلة المستحقة حول الآفاق التي يتطلع إليها هؤلاء المواطنون على المستويين القومي والمدني، وحول بعض المسائل المتعلقة بالماضي وانعكاسها على الحاضر.
يندرج ضمن هؤلاء عوزي بنزيمان، الذي دعا (هآرتس 15/10/2000) إلى اتخاذ خطوات رسمية من شأنها أن تنقل المواطنين العرب من الهامش إلى مصاف الشريك الكامل، لكنه لم يفارق غيره في إسقاط أحقية المواطنين العرب في النضال القومي لأجل الغايات الفلسطينية النبيلة، من منطلق رؤية لا تعتبر، في لاوعيها إن لم يكن في وعيها التام، هؤلاء المواطنين جزءاً غير منفصل من الشعب الفلسطيني.
أما البروفيسور سامي سموحة فيرى (يديعوت أحرونوت 11/10/2000) أن انفجار هبّة العرب في إسرائيل مردّها إلى أسباب ثابتة قائمة منذ إنشاء دولة إسرائيل وهي: الإجحاف المتواصل، والشعور بالاغتراب، والفجوات العميقة وصعوبة العيش في دولة تعلن عن نفسها أنها وطن الشعب اليهودي وأداة لدفع قضايا يهودية إلى الأمام.
ليس في منأى عن ذلك، لكن ضمن رؤية أشد وضوحاً وواقعية، يؤكد البروفيسور داني رابينوفيتش (هآرتس 17/10/2000) أن غالبية التصريحات والتحليلات التي صدرت حول هبّة المواطنين العرب، وبشكل خاص من طرف أوساط يهودية معتدلة، تغاضت تماماً عن الخلفية التاريخية والسياسية لوضع هؤلاء المواطنين، وانشغلت بالحديث المتواتر عن ضرورة استثمار «جهود استثنائية» لتحسين ظروفهم المعيشية الآنية، الاقتصادية والاجتماعية.. الخ.
وفيما يلي أبرز ما كتبه، ناهيك عن تأييده للمطلب السالف، تحت العنوان «قوة الاعتراف بالمعاناة»:
– الخطوة الأولى التي ينبغي اتخاذها، وهي غير منوطة باستثمار ميزانيات طائلة، ويمكن أن تشكل اختراقاً مهمّاً في تنقية الأجواء، تتمثل في مأسسة الاعتراف الحكومي الرسمي بالثمن الذي دفعه الفلسطينيون، بمن فيهم أولئك الذين أصبحوا مواطني الدولة في 1948، إن شبح 1948 يحوم فوق حياة العرب في إسرائيل، وقد كان واحداً من العوامل التي أسهمت في اندلاع الاشتعال الحالي.. الجمهور اليهودي، المنهمك بنفسه، والذي في أذنه وقر، ينسى أن دولته مبنية على أنقاض شعب آخر، وثمة خطر في هذا النسيان، فهو المسؤول عن وهم التطبيع وعن الإيمان الساذج بأن أحداثاً ابنة خمسين عاماً هي

مجرد ظاهرة عابرة.
– يتوجب على دولة إسرائيل أن تضفي شرعية على شعور الفقدان الذي يلازم خُمس المواطنين فيها، للعقد السادس على التوالي، والمجتمع اليهودي هنا ملزم أن يعترف بكارثة أولئك الذين دفعوا ثمناً باهظاً مقابل عملية انبعاثه، إذا ما كان (المجتمع اليهودي) راغباً بمصالحة تاريخية وليس بهدنة مؤقتة، فإن هذا الأمر حيوي للغاية.
– ينبغي الاهتمام بأن يتم في الحكومة، بشكل عاجل، إقرار مشاريع لتخليد ذكرى أربعمائة قرية فلسطينية جرى تدميرها والاعتناء بحطامها بصورة لائقة ومعقولة وتشريع قانون يعتمد يوماً حكومياً لذكرى النكبة الفلسطينية، وربما يغيّر النشيد القومي والعلم بشكل يتيح أمام جميع مواطني الدولة إمكانية الشعور بالانضواء وليس الإقصاء.

من جهته يرى الشاعر يتسحاق لاؤور (هآرتس 2000/10/10) في معرض تصديه لفضح رياء «اليسار» الإسرائيلي الذي ملأ فمه ماءً، أن الأرضية المسكوت عنها للمذبحة الكبرى ضد الفلسطينيين في الضفة والقطاع، كما في إسرائيل، يمكن البحث عنها في المكان الذي نعثر فيه دائماً على ذلك الصمت الهائل في وسائل الإعلام والمؤسسة الأكاديمية.

«فإن الأمر الرئيس هو من يحكمنا عندما تقع أحداث كهذه. لو كان بنيامين نتنياهو رئيس الحكومة الآن، لكان صراخ هؤلاء قد شق عنان السماء، أو على الأقل، جرى طرح أسئلة حادة، لكن هذه الحرب تخوضها حكومة إيهود باراك، وهذه الحكومة هي «خاصتنا»، خاصة «اليسار»، ولهذا، فإنها (الحرب) من أجل السلام بطبيعة الحال، ولأن كل شيء يجري الآن هو من أجل السلام، فإن كل شيء مباح..»».

في واقع الأمر، ما يقوله رابينوفيتش ولاؤور هو أشبه بجزيرة معزولة في لجة بحر متلاطم من التحريض العنصري والأهوج، ولذا، فهو يظل بمثابة «صوت صارخ في البرية».

ويجدر بنا ألا نغض الطرف، كذلك، عن كون الصمت لا يزال يلفّ قضية اللاجئين التي تعكس آثارها على أوضاع الجماهير العربية.

مع ذلك، في مقدورنا أن نعتبر هبّة هذه الجماهير قد زلزلت مفاهيم سائدة، صنمية، متكلسة، في الوعي الإسرائيلي العام.

أول هذه المفاهيم، وليس مبالغة القول إنه أعظمها أهمية، هو أن «المواطن العربي في إسرائيل» غير مقطوع الصلة مع الخلفية التاريخية والسياسية للنزاع الإسرائيلي – الفلسطيني، وإنه لا يرى في النقاش حول هذه الخلفية، أسود على أبيض، مجرد «نقاش بيزنطي»، بل نقاش حول قضية وجود مستقبل تقف في صلب كيانيته.

ولا مراء في أن هذا النقاش كان مطروحاً في السابق أيضاً. ولقد سبق أن أشرنا إلى أن مترتبات الشعور بالغربة، الذي يلازم «اللاجئ في وطنه» كانت إحدى صكوك ميلاد كفاح جماهيرنا العربية ضمن واقعها الجديد في إطار الدولة، دفاعاً عن كيانيتها وهويتها الجماعية.

يكفي أن نشير إلى شهادة شاعرنا محمود درويش في هذا الشأن منذ الستينيات، حين أكد أن تجربة «اللجوء في الوطن» تحيل أكثر شيء على الشعور بأنها تبعث على خطر القتل النفسي، بصفاقة أقسى

حتى من تجربة المنفى.. في المنفى، يتوفر لديك الإحساس بالانتظار، وبأن المأساة مؤقتة، فتتنسم رائحة أمل، وتحمل عذاب المنفى شيء مبرر، والتصور للمنزل والحقل والجمال المنشود والسعادة القصيّة وغيرها أمر مشروع. أما التجربة الأخرى، اللجوء في الوطن، فإنها غير مبررة وصعبة الاستيعاب في حدود الوعي المبكر، فإنك تشعر بالغُصّة والقهر حتى في أجمل أحلامك، وتكتسب ملامحك انعكاسات واقع، هي أقرب ما تكون إلى الرموز.

لكن الكابوس لا يستمر بهذا الشكل.. فإن اللاجئ الفلسطيني في وطنه لم يترك حرّاً بحرمانه، وهنا يضاف عنصر جديد، هو عنصر التحدي من جانب السارق، وهو ذو حدين: الحد الأول، يزيد من الشعور بالتمزق. والحد الثاني، يفجّر هذا الشعور في نقطة ما في التحدي المضاد، الذي يتطور إلى طرق عمل وكفاح.

*　　*　　*

عند هذا الحد، نعود إلى الوراء قليلاً، وتحديداً إلى تحذير أطلقه زئيف شيف (هآرتس 2000/10/10) من مغبة مجرد التفكير، بعد أن «حدث ما حدث» بقبول إسرائيل لمبدأ حق العودة بالنسبة لقلة ضئيلة من اللاجئين الفلسطينيين.

لقد حدث ما حدث من أجل أن نفتح أفقاً للانتقال من الوضعية السابقة إلى الحل، لم يعد هناك قاع أعمق يمكن أن تصل إليه القضية الفلسطينية بما في ذلك مشكلة اللاجئين الفلسطينيين.

في مثل هذا الوقت بالتقريب، قبل عام واحد، كتب شيف نفسه مقالاً على خلفية واقعتين ترتبطان بالقضية الفلسطينية:

الأولى: إبداء رئيس الحكومة، إيهود باراك، للمرة الأولى أسفه باسم دولة إسرائيل إزاء المعاناة التي لحقت بالفلسطينيين (الأسف فقط، لا الشعور بالذنب أو تحمّل المسؤولية). والثانية: تعبير وزير المعارف، يوسي سريد، باسم الحكومة، عن الخجل جراء اقتراف مذبحة كفر قاسم.

في هذا، المقال أقرَّ شيف بأن مشكلة اللاجئين الفلسطينيين هي «جرح مفتوح» لم يندمل بعد، لكنه وقف على الضد تماماً من الطرح الخجول الداعي إلى أن تقدم إسرائيل اعتذاراً. وتسويغه لذلك هو أن سلوكاً كهذا سيكون بمثابة اعتذار عن «الفشل الذي مُني به الفلسطينيون في حربي 1948 و1967، وهما الحربان اللتان تسببتا في موجات اللاجئين، وكذلك عن فشل الفلسطينيين في الصراع العسكري الذي خاضوا غماره ضد إسرائيل».

وتابع أن أقصى ما يعتقده، في هذا الشأن، هو ضرورة «تعاون إسرائيل مع جهات أخرى، في طليعتها الدول العربية كافة، من أجل حلّ مشكلة اللاجئين الفلسطينيين ضمن إطار تصفية النزاع التاريخي».

وقد أقام سوراً فاصلاً بين مثل هذا التعاون، الذي يؤمن بأنه حيوي لإسرائيل، أيضاً، وبين موافقة هذه الأخيرة على تحمل مسؤولية مبدئية عن نشوء المشكلة: «إذ إن مثل هذه الموافقة ستكون بمنزلة ثغرة، تجد دولة إسرائيل نفسها، حيالها، وإثر الانسحابات الإقليمية التي ستقوم بها، في مواجهة مباشرة مع خطر فقدان الأكثرية اليهودية في مناطقها مع ما يترتب على ذلك من أخطار!».

وللمعلومية، فإن زئيف شيف، فيما يقوله هنا، يستأنس، نصاً وروحاً، بالموقف الإسرائيلي الرسمي التقليدي من مشكلة اللاجئين الفلسطينيين.

لا يسع «تحذير» شيف إذا، حتى أن يذرّ الرماد في العيون، وهو يؤكد بصيغة أخرى أن علاقته، هو وأمثاله، بالسلطة الرسمية في الأمس، أشبه ما تكون بعلاقتهم بالسلطة اليوم. أما جوهر هذه العلاقة، الأمس واليوم، فهو التناوب على خدمة سيطرة المواقف الرسمية التقليدية وهيمنتها!

ما ينبغي أن نأسف له هو أن الأصوات القليلة الشجاعة لم تذهب بعيداً جداً فيما كان يفترض فيها أن تعمق الحديث حوله، حتى وهي تنفرد في الدعوة إلى عدم استقراء الآتي من الحاضر فقط.

على هذا الأساس، لا يبقى أمامنا سوى أن نستعيد كره المؤرّخين، الذين لا يكلّون عن التشديد عليه، لأية تقسيمات زمنية جامدة تفصل بين فترات التاريخ كأنها بوابات حديدية ثابتة، فالتاريخ الإنساني يشبه عملية النشوء والارتقاء: نموّ وتطوير وتكيّف.

ولئن تمثل «السلام»، بالنسبة للمثقف الإسرائيلي، في هيئة بوابة حديدية ثابتة، فإن أقصى ما تغيّاه من وراء ذلك هو أن تنغلق هذه البوابة على أية آفاق فلسطينية في مقدرتها أن تنفتح على دلالة التاريخ الإنساني.

---

* ناقد فلسطيني يقيم في عكا.

طقوس العبور إلى اللغة في حضرة الموت

عزت الغزاوي*

حين عبر رامي(١) إلى الموت لم أعد أخافه ،
وبالنسبة إلي.. كانت تلك هديته الأخيرة ..

1- باعتراف نبدأ، وباعتراف نجهّز أنفسنا للعُبور، وباعتراف نخلق مفهوم «الطقس»، وما بين كل ذلك بعيداً عن الاعتراف.. نحن لا نعيش حياة شجاعة طيلة الوقت، نحن نشحذ ذواتنا فترة طويلة لنصل إلى لحظة شجاعة واحدة نختار فيها اعترافنا في البدء والجاهزية والخلق.

2- في البدء
فشل الكاتب في التعامل مع اللغة.. انتصر لدمعة سكيبة رآها كل الناس ودهشوا لحجمها - العالم ينهار وحبال الحياة تتدثر بالرماد. تهرب المفردات والرموز والملامح ولا يبقى سوى الأب الذي لا يستطيع الصُراخ وسط العتمة، كيف سينام ليلته الأولى حين يذهب الجميع ويبقى وحيداً، ومن قال انه سينام ولماذا ينام، ولماذا يتغير طعم القهوة ولون الفضاء ونكهة الصمت. أي التواريخ تبقى، وما حال الأيام بالعدد والحساب، وهل للقمر كوة لطيفة تطل علينا أو نطل عليها حين نشتهي علاقة الجذب أو حين نصادف ظلنا الليلي ونشتاق لحظة من هروب. والهروب قصة أخرى، إلى أين وكيف؟ وأحلام ما قبل الغفوة حيث نطفئ كبوات النهار وهزائم الروح وانكسارات الخراب، ماذا يحلّ بها - فهل سيحلم ببيت لصيق يسكنه الذي لا يعود مع امرأة يحنو عليها، ويسمَعُهُ وهُو يركضُ بها إلى السماء: أحبك يا امرأة وأشتاق أن أفنى فيك حتى لحظة الخلق، أم يحلُم الخلق صوتا من طفولة يعلو ويخبو ويغفو على يدٍ صغيرة مكوّنة لتوها تحرّك الشوق حتى ينام.

3–مداخل

– ليلة، تكونين أوسع من كل فضا، بيدراً للروح، والوجد هما، مثل زيت الناي، أو غضب السّما، حدّثيني كيف تمضين معي، تقتلين الوقت في الوقت، أو تشعلين الجمر ، بعد أن كان انطفا.

– أصيح فيك يا امرأة من دروب: علّميني كيف تنسين خروج الروح من الروح، إذْ تصرخين: أنا تحت عرشك السّرمدي، هبني الحياة لي ولهذا الذي كان من روحي، وأحمله إلى شهقة الوجع المرّ وغسّل أيامه القادمات، بعطر الغيوب .

طيور مهاجرة كقلبي أول الشتاء، سابحة، والأجنحة في سَمْت السماء أشرعة، ليتها تصْعَدُ نحوي، ليتها تغسل روحي، ليتنا كنا معا.

– خُذ ما تبقى من العُمرِ، خُذْ ما تبقى منَ الزَهْرِ، خُذْ ما تبقى منَ الشِّعر، لكن لا تراوح مضجعك، هات من سرّكَ رمش جفن أوجَعك، هات رقّة عيْن، أو وقع خطْو أتعبك، هات ما شئت فتوقدُ روحي، يا حبيبي، كل ما عندك صارَ كونا غامر الأطياف، لوّن عالمي الموجوعَ، أو خذني معك.

– وأشهدُ أني بكيْت، وأني انتحبت، وأني احترقتُ، وأشهد أن الجمار التي أشعلت قلبي، حنيناً إليْك لم تفارق موقدكْ.

– والمشاوير التي أسرجتُها ، تمشي إليك، أنّ صلاتي وابتهالي اضطرامات حنيني، كلّها نجوى إليك

– فُرجة الباب من البيت العتيق، تنتشي بالمطر وخيوط الليل في وسط الطريق، تحتفي بالشّجر، وأنا أسْمع رجعَ صوتي ، يَابساً يا صديق، علّهُ «رامي» هناك، يحتفي باللّيل ، أعياهُ السّفر.

الصلاة السابعة

– إليك الكلام الأخير وقد توضأت الخيل، أنا صامت في منامي، وقد شفّ سمعي، وكلّ السكون تناهى إليّ، وارفعُ في العتم كفّي: ربّ دعني أراك بقلبي، أحادث نور البدايات، ربّ، والسؤال أقوى من الجواب، فهبني القناعة بالأسئلة، فأنهي العتابْ .

– هل يزجر البحر غضبة الموج إذا الموج اعتلى كوم الزبد، أو تداخل في الكلام؟

– متى توقف الأرض، زحف الثلج، إلى أثدائها الواهنات، وتبني على قشرة الصبح أكوام المساء؟

– لماذا يولدُ الصُبح، من اللّيل، فيرحل الصُبْح واللّيل يبقى؟

– وأين يختبئ العُمْر، في اليوم، أو في الشهر، أو في العام، أو في ذرّة من تراب؟

– والذين يأتون حيارى ، يَوْم تنشق جيوب الكوْن، هل جاؤوا حيارى، أم يؤدون الحساب؟

– إذن ، مَنْ يُغسّل قلب القاتل، أنت يا الله، أم القتيلُ؟

– هل ترى «رامي» يتيه ، الآن، فوق سقف الشّرفة العليا من الكوْن، وينساهُ الحَمام؟

الصلاة الثامنة

– رَبّ إن السؤال، يعابثُ قلبي، وتعلم أني على عتبات الطريق أُفتش جيبي، والسّلال كلّها

قشرٌ، رَبّ دعْني إذن أُحاور نفسي تارة لمّا أجدْها، وطوْراً حين أمشي دون نفسي .
– بالسنيْن، أردنا أن نَعُدّ العُمر بوصلة، والحنين أوجَد المدى والشّذا، رحلة، والقمَر، لا منازل فيه: اليومَ اكتملت على جلسة في المساءْ، لم نُغنِّ، كأنّا على مَوْعد للرَحيل، وَلَمْ نرتو، هات كُلّ عُمْرك، في سَلّتي أسْبلْ جفونك، يا ظَرِّيف الروح، لا توقف جراحي أو نوَاًحي، هاتِ سَمْتَ الشراع الطويلْ، مُدّ مِن أهداب موجك لي هذا الجناح البليل .

4– مـــرايا
– خلف كل المرايا وجوه تخاف المرايا وتمسح الغُبار ساعة الصُبح، تبحث عن تجاعيد الامس، وأنا أبحثُ عنك.
– لا بُدَ أنني كنت انتهيتُ تماماً من مراسيم الصّباح حين سمعت الرصاصة الثانية التي اختارتك وغطّت وجه المرآة.
– لم تكن أنت هُناك بين جدران المدرسة ولكن بقعة الدم جانب الجدار – وقريباً – جداً من الجُنود كانت أكبر من الشارع، لذلك احترت كيف ألحق بك.
– أُمك لم تكن تمشي، لم تكن تركض، لم تكن تشير بيدها إلى أي شيء، لكنها ارتسمت في البُعد حائرة تحاول أن تطير أو تنفجر– لست أدري ولم أسألها فيما بعد.
– جندي ينظر إلى وجهه في مرآة الحافلة وسط الأصوات ويمسح فُوهة البندقيّة بقطعة قماش.
– امرأة – صاحبة البيت المجاور– قالت إنّك حاولت أن تحمل جريحاً حين قفزتَ بالألم .
– من قال لي إنك طلبت منه أن يفتّش جيوبك قبل ان تَسكتْ؟ تساءَلت كثيراً، إذ ماذا أردت من ذلك؟ على انه ذكر لي، أيضاً، انه وجد قطعة نقود فقط وطلب مني أن أسامحه لأنّه أَخَذَها .
– لم يكن أحد في المستشفى حين وَصَلْت – سمعت الكثير من الأصوات والخطوات – سمعت من يطلب المزيد من الدّم، وأذكر أنني طلبت أن أراك ولم يعبأ بي أحد – أظن انهم لم يسمحوا لي ذات لحظة استهجنت كل الخَوْف ... تذكرت أن القلق فترة نقضيها دون فائدة الحاقّة البعيدة – تلك التي تأتي بعد كل شيء مع الوصول النهائي– وقفتُ عندها وكان وجهك خلال الشسوع يطمئن روحي رغم عتابي الشديد، فهل يمكن لك أن تتركني بتلك السهولة؟
– من منهم يكون الذي أطلق الرّصاصة؟ أحدهم، بلباسه العَسْكَري وحين مررت بهم أمام المدرسة، كان هائجاً بالموت.
– إذن، ستصحو حين أهمس بأذنك – ستقف وتتعلق بكتفي – ستحتمل لو فقدت إحدى قدميك أو يديك – لكنك ستصحو.
– من قالها لأول مرة – قال شيئاً عن الموت – وأُمك صَرَخَت؟
– كل الأشياء تهرب إلى البيت وأنت قادمٌ إلى هناك فمن سيحرّك الجبل الذي أنت –
هُو الحشد الطويل والطريق إلى التراب رَغْم همسي.

5– أغنيات

– قد نُغني حين لا يخرج الصــــوت من أرواحنا، قد نــــغني، لأنّا هنا، على بيدر من متاهة، نرسل العين خلف الفراش ونسأل: إلى أين يمضــي الجنـــــاحُ الذي يحمل كل المرايا، ويرسمُ كل الخطى؟

– ونغنـــي لأن الغُنا من وَجَعْ، لأن الغُنا مــن طقوس القلوب، التي تشتهي الحُبْ، وتعـرف كيـف تصلي إذا أظلم الليل، وتاه الدليل .

– ونغني لأن الذين، قد مضوا للموت، مــن فوقنـا يعتـبون، عذّبتهم بُحـة العصافـيـر تشـــرب النّدى، وهم نائمــون، عذّبتهم وشوشات الشّوارع والروائح، لكنهم ضاعوا ما بين مقتول قتيل.

– ونُغنّي لأن الجنود استراحوا وراء الحقول، ضمّدوا جرحهم بالتراب، واستفاقوا على رجعة الصّوت، وصَمْت الطُبول .

– ونغني لهذي الشوارع في أوسلو، أنكرَت نفسها اليَوْم، وضَجــّت بالمرايا والصُوَر: جدارٌ لغزّة يرقُبُ البَحْر، جدارٌ على أركانه الناخرات، يقفز الأطفال عراةً بفقر المخيّم، ولون المخيـم، وجوع المخيم ولكنهم يلعبون .

– ونغني لهذا الزمان، لأنّ القلوب، تغتسل بالمطر – لأنّ الصِّغار – حين النوم – يحلمون، بان الملاعب تبقى، وأن الطيور تعود .

– لمن سنُغني حين نشتاق بعضنـا، لمن سنغنّي حين لا نَسمع إلاّ صَوتنا، وهل يحتفي الصُبْح بنا لو تساءَلنا إلى أين راح الخطو، وهل للمساء رجوعٌ كما كان وللأَلعاب مَوْجٌ من قمر كلما تاه انتبهنا .

– بل نغني حين نشتاق، نعم، ونغني لنغَرق في ربوة من عناق، ستخرجُ من زهرة اللّوز وتحمل نايـاً وترقب من شَفَتيْ حبيبتك الأغاني، حُلوة تأتي ونرقُب سربَ الخيْل أعياهُ السّباق.

– ونغني معـاً عند حَد للِّقاء: نيّال من رجـع للـدّار قبل العَصر بشويّة، ولقي عَ باب الدار كوم عيـال، وشربـة مَيْ إمخلّطه بمَوّال، وتنهد لمّا انجعى عَ حدّ الحيط، وقال ما أحلى هالميّه.

– ونغني معاً عند حَد للوجع: نقول: يساكنُنا هذا الوداعُ الغريبُ كأن الزمان استدار وضاعَتْ دقائقه الغابرات ولم يَبق الاّ اللحظة الناجزة، فمَن يَعْرف الظل يدرِ أنّه سطوة الشَمْسِ لمّا تفتش بين الزوايا تنادي البعيد وتنسى القريب.

– وغنائي تُلَقّعهُ سطوةُ الشّمس، كلّمـــا أغمضـْتُ تاهَ الظـلّ، فمن يناديني إذا استغرقتُ فيك؟ وقديماً حينَ كنت تمشي مثلنا، وتنام ثم تصحو مثلنا، وتُغنّي ثُم تبكي مثلنا – وقديماً حين كُنْت تلامـس روحي وتضيءْ، بالمعاني لم تغازلك الأغاني وكانت مفازات قلبي تغطيك وتمشي معك الطريق، فأَسْرق بعض المسافات وحْدي خليّا من الخوف وأحلم أَني أصيغ العَوالم نصفيْن للصّمت والهمس .

– وحلمتُ أنني أقطع النّهر وَحْدي – وذاتَ مَساء وفي العاصفة تعرّيتُ من كُل شيء سواك، تقاذفني الموج طوراً هُنا وطوْراً هُناك على أنني عُدْتُ والذاكرة لم تجدّد نفسها.

– ونغني كُلّما ضاق المكان بنا، يا حبيبي... وكلّ المكان يضيق، ونغني كلّما باعَد الخطو بيننا، يا حبيبي... وكل الخطى راحلات – أيْ حبيبي – حامل الشوق معنى حامل الشوق غريق.

– وأحْلم أني أناجيك وأسمع صوْتك – فماذا تقول وكيف تغني أوْ تصلي! تقول: أحن إلى لهجة الحُبّ في

عينيْك –أحنّ إلى كل شيء هُناك، أحن إلى عَوْدة كي تراني مليّاً وأحكي الحكايا قبيْل النُعاس، فهل يا ثُراك ستلهو بثوبي؟ ولكننّي يا أبي لا أُحبّ الرّصّاص، ولكنني يا أبي لا أُحبُّ الحديد – أَخاف إذا عُدتُ أن يغمضوا عينيّ أَو يقتُلوني من جديد.

– ونُغني لزمانٍ رُبّما يأتي – وهل يأتي – وأَنا أَين أكون! جَفّت سلال الليالي، يا حبيبي –ويدي كلّما امتدت إليها لامَسَتْ كفّيك ، والحكاياتُ اختفتْ بين سوريْن يغلقان النافذة.

– أمّا أنا– فأغني لأن الجنود ، يتّموا قلبي، وذات صَباح لَمْ يعد رامي إليّ – وأغني لجُرحي هذا – وأُغني لكل الجراح، علّها تمشي إلى الوقتِ وينساها النواح.

6– موانئ

– لا حدود للبحر حتى مكان القدم، نورسٌ هذا الذي يخيط الأزرق؟، ماذا يقول في غنائه الممعن في البُعد، ينادي أم يناجي غفلة السّحر!، خذني إلى صوتك الأعمق، خذني إلى المركب الأحمق – من يقود السفينة من النهر إلى البحر موج الزمان – أم خيوط لا ترى إلاّ حدود العَدَمْ؟

– هُنا اغتسل النهر طفلا، وضَفّر للريح حقلا من سَبَلْ، ما ظلّت امرأة على شطه المزبد، إلا هاجها الحنين، إلى رقدة في العراء، هنا غازَل النهر هجوع اليقين، فاض بالبيدر الحَبّ والهوى والقُبَل.

– الفراشة، لم تزل على حالها سارحة، تؤوبُ إلى البيت لما تجيء الظهيرة، ترف على صورة في الجدار، ولمّا يسكت البيتُ، يهمي صوتُها الزاحف، لا ينطفي قبل أن تدخل في إطار الوقت.

– الدرّاجة، تمدّ إليك أجنحة لا تطير، والندى، والمدى، والعَجَلْ، طارَ شوقاً إليها، علّه سلك الحديد انكسر، بين قضبان المحطّة.

– الحمامة هدأت عند المقيل، على فرشة الماء استحمت، عفّرت رأسها بالرمل، نفّضت ريشها المبتل، ثم راحت تُفتّشُ في الزاوية، عن حصى قد تداخل في التُرابْ.

– صبيّة، علمتْ أنّك غازلت فيها الضفائر والشّفاه، غيّرت خطوها اليَوْم، ولمّا رأتني على مفرق الشارع، تاهت بيْن عينيّ وانكرتني، وساءلتُ روحي: من تراها تغزل الآن للوقت؟.

– المدرسة سورها يُخفي الجَرَس، والتلاميذ الذين ارتووا بالمشاوير العتيقة، غلّفتهم أصابع الطباشير، وقوانين الإزاحة: من مضى قد مضى إلى بقعة في ساحة الإعدام ، لهف قلبي عليها، لم تغتسل رغم كل المطر.

– الجوريّة، اشتعلت أوّل نيْسان، بالبراعمْ، أي سحر حرّك الموْت فيها، وهل يا تُرى لامَسَكْ ؟.

– خزانتك، وأسرارها الساكنات، لم تعبث بها الأيدي التي أحبتك، تخشى أن تهرب الرائحة، وبقعة الدم الصغيرة فوق الجيْب، على حالها .

– ومروى عذّبت قلبي وتسأل أين تنام وتسأل إن كنت تعود، فمن ذا يجيب السؤال ومن ذا الذي يدخل الفقد إلى روحها.

الوصيّة العاشرة

– لا تقتل الوقت إلى أن يقتلك، دعهُ يمضي لحاله، لم يَعُد على رسغك دقّاتٌ، ولا لسمعك أجراسٌ فتوجعك.

الصلاة الحادية عشرة

– يا ربّ، وحين يضيء الفنار البعيد، سأمضي وحدي، هَدّى وجيب القلْب، حتى تأخذ المجاديف شكل الأشرعة، وتقوى الأذرعة على غضبة الموْج، هكذا إلى بقعة لا تؤوب، وجّه الأَبصار والأفئدة، ودعنا نصبح اثنين نعبّ ساحة السحَرْ، على مهلنا نرسل الأقدام، والنبض وأرجوحةً للقمَر.

– لقيتها صدفة تحت دالية، تنسجُ الوقت لي، انهضي قبل أن تذوي العناقيد، نرى كيف تنتشي الكيمياء بالحلو والحامض، يدعكها النور، سافري ما تشائين بعيْنيّ لما تعودين إلى الميناء عاريةً هكذا كما أنت.

– كعكة الميلاد، ضاق بها منع التجوّل، والجنود استراحوا، فوق كوم من رصاص، عبأوا الشمع كما يريدون، هُم الآلهة – سيّجوا طعم الفانيلا بالنحاس.

– كتابك مفتوحٌ كما النافذة، فمن يقرأ الصفحة الأولى سواك، ومن يغلق آخر الصفحات إلاّ يديك ؟.

– أنا – نلتقي ...؟

– هو – نعم – نلتقي

– نلتقي؟

– ونمشي معا .

– ونغني .

– ويسمعنا القادمُ والراحلُ .

– وتحملنا الريح ؟

– وجناح الفَراش وبرج حمامة عاشقة.

– ونحكي؟

– عن اثنين قاد خطوهما الشوق إلى ساعة من لقاء .

– ونلتقي ؟

– على هودج زيّنته المفازات، وطارت إليه الأغاني، والمواويل القديمات، وقلبك يمتلي مرّة أخرى بشوق جديد. إلى ثوب يوسُف، فهل تغيب الرائحة، وحناءُ روحي تناجيك كما القمح ناجى صُواع الملك .

– بالقصيدة، تحت حدّ الصمت، نزدهي بالمرايا والصُوَر، وإذا ما اعتلت أمواجنا ضجّة الموت : نرفع الصّوت، ونمسح عن وجه المرايا الغُبار، نعُبّ من وسط الضباب دخان الخفايا، ونحلم: إن الزمان يعود ولو مضى، وان العُيون التي تقهر الوقت، ترسُم الأشياء في غمرة لاهية، وتفرح لمّا الكلامُ الشهيّ، على بيدر من الخطو يسبق الأحلام في لمسة ساهية، إلى أن تجمع الريحَ خطو الخيول السارحاتِ في الزّفة الغافية..

7– بداية

وقيل إن امرأة تُدعى مهديّة خرجت إليه بعد غروب ذات اليوم الذي دُفن فيه ونبشت عنه التُراب فوجدته

يبتسم وقد راح يتلهى بإبهامه بين شفتيه وانّه قفز إلى حضنها ، فأشارت له بأن اسكت، فَسَكتَ وراحت تُهيل التراب في الحفرة حتى انتفخت ، وما كادت تفعل ذلك حتى شدّته من يده وهربت من بين القُبور. وقيل إنّ صديقاً من أصدقائه في المدرسة يدعى كامل العُمَري صُعق صباح اليوم التالي حين رنّ جرسُ الهاتف وتحدّث معه وقال إنّه يريد العودة إلى البيت، وإن طبيب المستشفى ضحك ساخراً حين سمع الخبر وقال إنّ الشابّ الذي يتكلمون عنه كان قد وصل المستشفى في حالة الموت السريري، وإنّ أحاديث من ذلك النوع أغرب من الخيال. على أن والده الذي كان ذاهلاً عن كلّ أَمْره غافَلَ أهل بيته بعد منتصف اللّيل وذهب إلى المقبرة ونبش التراب الطريّ وإن الأهالي المجاورين سمعوه يسأل إنْ كان البرد قاسياً، وحين اشتدّ سقوط المطر عاد أدراجَه ولم يستطع أحدٌ من الناس أن يرى أي طريق سَلَك وإن كان معه أَحَد، إلاّ أن أمّه – من بين دموعها – قالت انّه سافر مع جدّته ولم تتراجع، وفي اليوم التالي تأكّد الخبر أن جدّته سافرت بعد أن سمعت خبر مَرَض ابنتها بجلطة دماغيّة حادّة زلزلت حواسها.

* روائي فلسطيني يقيم في رام الله، رئيس اتحاد الكتاب الفلسطيني.

(1) رامي (16سنة) استشهد في 16-11-93 اثناء مظاهرة ضد المستوطنين الذين اقتحموا مدرسة الهاشمية الثانوية بمدينة البيرة .

نثريةٌ في ثوبِ نَصِّها

وسيم الكردي*

هل كان البحث في «سلام غامض» و«حرب واضحة» كافيا ليعلقنا بشباك غوايته لغد آخر؟! فبتنا نهيئ أنفسَنا لسلام غامض، ولم نهيئ أنفسنا لحرب واضحة. في الشعر نبحَثَ في غموضِنا بل نستَزيده كي نمنحه استعصاء جديدا فيزداد جمالا ولذة. حينها نغوص فيه بحثا عن تأويلنا الفردي للمعنى، وعن تفسيرنا الآخر في رؤية النص من زاوية أخرى لا تُرى بالعين المجردة بل تُرى بعين العقل أو عين البصيرة. أما في التاريخ فإننا نبحث عن تأويلنا الفردي والجمعي للمعنى. ولحظتا التاريخ والشعر لا تتشابكان تماما إلا حين تشتبكان...

* * *

نحن لم ندخل الحرب، وفي يقيني الشخصي أنا لن ندخلها، هم يشنونها علينا، ونحن ندفعها عنا بما تيسر لنا من الوقت، وما تيسر لنا من الريح التي نلملمها برموش عيوننا، نخبئها في جيوبنا، وبين حين وآخر نقذف بها آلة الجنرال العسكرية. وندخلها أيضا بكل ما لنا من الروح.

* * *

في اليوم الأول يقوم السياسي رئيس الوزراء صباحا من فراشه، يغتسل، يتجه نحو المشجب، يلتقط بزة الجنرال، يرتديها، يغلقها عليه إلى آخرها، ويتجه إلى غرفة العمليات أو إلى مستوطنة.

وقبل أن يذهب الجنرال إلى فراشه يخلع بزته العسكرية، وينام نوما ثقيلا، في الصباح، يغتسل، يتجه نحو علاقة الملابس، يلتقط بذلته السوداء، يرتديها، يغلقها إلى ثلاثة أرباعها، ويتجه إلى البرلمان ومن ثم إلى مؤتمره الصحفي.
في اليوم الثالث، يصحو متأخرا قليلا، يتجه نحو المشجب يلتقط البذلة والبزة معا، يرتديهما، ويتجه إلى مكتبه وغرفة عملياته في الوقت نفسه، وفي عربة رسمية سوداء واحدة.

* * *

أيهما الجنرال وأيهما السياسي؟! ربما أكون ساذجا قليلا حين أرى السياسي الآن ثم أرى الجنرال بعد قليل أو العكس. لا يخطر في بالي أنني لست أنا الذي أرى بل هو الذي يريني ما يشاء منه، فينطلي الأمر عليّ كما انطلى على الذين من قبلكم.

* * *

لم يشأ الجنرال أن يعرف بعد أنه لا يمكن لبدلته الرسمية وبزته العسكرية أن تلقنانا الدرس الذي توجبه قوانين السياسة والحرب. لم تأخذنا الريح على هواها إلا قليلا، وسنأخذها على هوانا كثيرا، سينتظر وننتظر وسيرى وسنرى.

* * *

قد نسقط غدا مرة أخرى، لأننا لم نحكم قبضتنا على الريح كما يجب، وبدلا من أن نقذف بها إلى هناك، قد تفلت منا وتدور بنا كما يُشاء لها.
الريح لا تتقن الخديعة... الريح تغوي الحاوي فتفلت من يده، أما حين تكون في قبضة الروح، فإنها تستجيب لها دائما.

* * *

إذن هي غواية الجنرال وهوايته، وما بين الهواية والغواية شرك كبير ندعى إليه. وما بين الغواية والهواية يمتد كل ما يقتنصه القراصنة في عُرض التاريخ.

* * *

أكان غواية لنا جميعا تلك السنوات السبع التي نخلّفها وراءنا، وها نحن ذاهبون إلى أيامنا القادمات كما يذهب الخلق كل يوم إلى يومهم اليومي، بكل التفاصيل الصغيرة والبسيطة والمملة... والمدهشة أحيانا أيضا؟
أهي الغواية الآن مرة أخرى، وها نحن ندخل إلى فضاء آخر غير فضاء السنوات السبع التي رحلت؟!
هل نحن أمام سبع أخرى عجاف؟ ولم لا؟ ما الذي يضمن أننا ذاهبون إلى سبع سمان؟!

*   *   *

ما الذي يمكن لعين العقل أن تلتقطه هنا في هذا المشهد العفوي؟ هل هو عفوي فعلا؟ وهل العفوية تستحق الثناء؟ وهل هو مخطط؟ وهل التخطيط يستحق الثناء دائما؟
ما الذي يمكن لعين القلب أن تكتنزه هنا في هذا المشهد الشفوي؟
ما الذي يمكن لآلة النظر أن تبصره في المشهد اليومي المطل من نافذة غرفة النوم أو من المطبخ أو من شاشة التلفزيون أو لعبة في «Play Station»؟

*   *   *

نكتب ليلنا بنهارنا
ونكتب نهرنا بدمنا
والكتابة لا تستطيع لدي الآن أن تتحرر مما يكبلها لتدعيَ فقط أننا أيضا جميعا ذاهبون إلى الحرب حاملين قصائدنا على أكتافنا كما يحمل المقاتلون أرواحهم أو بنادقهم!!.

*   *   *

ليس كل من مات فاتحا صدره بطلا، وليس كل من مات صدفة ليس كذلك!

*   *   *

تقاس الحياة وموتها في السياق. إذن لنفتش عنه فينا، وحولنا، فربما يتدفق المعنى!

*   *   *

الصورة الأخيرة المثبتة على شاشة الروح هي الصورة التي لم يلتقطها المصور بعدُ!

* * *

لسنا كلنا ذاهبين إلينا بل هناك من هو ذاهب إليهم وهو في طريقه معنا إلينا!

* * *

ما تقوله لي صورتها «هـــــــــــي»
أَلسارة من الدم ما يكفي كي نطرز عباءاتنا كلنا؟!
ألَسارة ما يكفي من الطفولة كي تفيض على أخاديدنا؟!
ألسارة ما يكفي من الكلمات كي تصهر الحروف فتغدو قصائد لغواية أخرى... وأخرى؟!
ألسارة ما يكفي من الموت كي نكتفي بما في القبور، ونبلع كل ما تبقى فينا من البلاغة؟!
ألسارة ما يكفي من الوقت كي تحرر فينا صفيرَ الدقائقِ على لوحٍ من عقارب؟!
ألسارة من الماء ما يكفي كي تطهرنا كلنا؟!

* * *

ما تقوله لي صورته «هـــــــــــو»
أله من الوقت ما يكفي كي يشنق رغبة أخبرته بأنها لا تنام على لأيها؟!
أله من الليل ما يكفي كي يقضّيه ها هنا يدلي فوهة بندقيته على شرفةٍ في بيتنا؟!
أله من الحبر ما يكفي كي يبذره على صفحة الأمس؟!
أله من الدمع ما يكفي كي لا يبكي؟!
أله من الصوت ما يكفي كي يظلّ صامتا وبندقيته هي التي تحكي؟!
أله من الأولاد ما يكفي كي يستريح على جثة يانعة؟!
أله من الريح ما يكفي كي يلبد هذا الهواء بدخّانه؟!
أله من الصمت ما يكفي كي يسرّب في الجو كل هذا الجنون وهذا الطنين؟!
أله كل هذا الركام من الكره كي يأتي به دفعة واحدة نحونا؟!

* * *

ما تقوله لي صورتي «أنـــــــــــا»
ألي من الوجع ما يكفي كي يصرخ الصمت فيّ فيعوي؟!
ألي ما أشتهي من غد ناضج لا يُرى؟!
ألي من الحبر ما يرشق الغيم يسقطه ظلالا على ما تبقى من الريح فينا؟!

ألي من الوقت ما يكفي كي أظل أعد خطاي التي لا تصل؟!
ألي من الأغنيات ما يكفي كي أمنح هذا الذي يشنق لحني مزيدا من الأغنيات؟!
ألي من الوجع القديم ما يكفي كي أمرَّ على وجعٍ جديد، فأجثو عليه، ويجثو عليّ؟!

* * *

كنا هناك وكنا هنا
ونبقى هناك ونبقى هنا
لا شيء يأخذنا إليه سوى هذه الأرض
تأخذنا وترجعنا إلينا
تلك سماؤنا الأخرى وهذا ليلنا
كنا هناك نُعدُّ أنفسنا لنا
وكنا هناك يَعدون أنفسنا لهم

* * *

فما تقول التي لا تنام على ليلها
وتغفو كثيرا على دمعها؟!
لماذا تقول؟!
وماذا تقول؟!
فكل الذي لا يقال... يقال هنا
وكل الذي يقال... لا يقال هنا

* * *

فماذا ستجني التي لم تنم على خدها سوى دمعها؟!
أيقطفها الليلُ من ثوبها؟!
أتقطفها الريحُ من خصرها؟!
أيبحر فيها هواء سواها
وتبحر فيها دماءُ سماها؟!
«وسارة» تنام على ضفتيها
كأن الذين ينامون ليلا على حدقتيها يفضون في الحلم نبع جناها

أيمضي الهواء بها لتغرف منه شارتها وتمضي
أم أن الليل يسرف في تلقيها، ويغرف من حناياها بياضَه؟

* * *

لمَ لا ننام على رصيفك مثلما نمنا كثيرا؟!
إنا استرحنا مما يؤرقنا، وآخينا سراب نهوضنا... وآخينا الذي يمضي بنا، وله مضينا
كأن صحيفة الصبح الأخيرة لا تمل ولا تكل من صور الدماء وصورة القتلى وأركان الجنازات الكثيرة في الأزقة والشوارع...
هذي شوارعنا تفيض بناسها
والأرصفة
تغدو لقاء العابرين إلى ما يطيب من البكاء
لا شيء يحملنا إلينا سوى دمنا
لا شيء يسرف في العناق سوى مناديل النساء تعانق الرؤيا، وتعتنق البكاء، كأنهن خلقن كي يَعْبرن معبدنا بصوت الواجب العبثي أو صمت تغلّفه يدانا
لا شيء يأخذنا إليك ثم يحيلنا وجعا عليًك سوى سوانا

* * *

كأني أنا القاتل الذي لا يريد سوى أن يكون إلها عليا
ويمضي يفتش فيّ الخراب الذي يوقظ الليل حيّا
كأني أن الباعث المستباح الذي لا يهرب الليل إلى حدقتيه ولا حدقتيا
كأني أنا الآخر المشتهى
كأني أنا الذي لا يعد النجوم، فلا أُصطفى

* * *

ما الذي يُرى وما الذي لا يُرى هنا في هذا الدم الذي نحن فيه؟
ما الذي يُرى بعينٍ وما الذي يُرى بقلب؟
ما الذي يُرى بليلٍ وما الذي يُرى برابعة نهار؟
وما الذي تراه النَّار؟

* * *

أهو السلم يأتي ويذهب
أم أنها الحرب تأتي وتذهب؟!

* * *

أهي الحرب التي يَرْتَدون جبتها مذ كانوا على الأرض يختصرون الحكاية فيها أم أنه السلم الذي يُشعِل الرعب فيهم؟!

* * *

لم نعشق الحرب يوما كما يعشقون!
ولم نكره السلم يوما كما يكرهون!

* * *

كنّا نطرز على هذه الأرض أبجديتنا وأبجديتهم وأبجدية الكون كله
ونهفو إلى غدنا الذي فيه نتمم هذا النسيج لنا ولهم وللآخرين على هذه الأرض
هذا شأننا الآن وغدا، ولن نخرّب سجّادنا كي يجدّلوه حبالا لشنق الحديقة من وجنتيها.

* * *

ما المعنى الذي يهبه لنا سلام يكون استراحة قصيرة بين حربين طويلتين؟!

* * *

أكثر الذين دبوا ويدبون على هذه الأرض ينشدون السلام الذي يمرق الليل فيه دون ارتجاج السواد ودون عويل البياض، فما أبعده؟! وما أبعده؟!

* * *

يا آخر الأصوات فينا
إننا نشتق منا ما يُشَق به غبارُ الليلِ تشنقه جواهرُ تاجِكَ العالي وتذرفه دمانا

لك آخرُ الطلعات
وفينا أول الكلمات
آخرها...
نذرفها عليك كما شئنا وشاءت غوايتنا، فلا تنهض بنا فقد قَصُرتْ قوائمُنا
وأنت تَشبُّ على رداء الموت منتبهاً إلى ما ظلَّ منكَ وظلَّ منا
ما ظلّ فينا لا يمر هواؤه فيما ارتأيت...
قد لا يمر غدا أو بعد عُدّتنا الأخيرة
بل يمر كما يشاء، متى يشاءُ...
سيمر من أقصى دموعِ الريحِ
كي يلدَ المدى المفتوح
ويملأ الدنيا صراخاً خاوياً، ويَلُمُّ نجمَته عليه، ويستريح.

* * *

إذن ما الذي يُختتَم به هذا القول كي يَنفتح قول آخر على أفقه:
«لم نكن في تاريخنا الذي انقضى معلَّقين على ما يشبه أول التماثيل، ولن نكون فيما هو آت من التاريخ سلالةَ نسخةِ الكربون».

* * *

ولأقول ما لا تقوله النبوءة، فأنا بحاجة إلى مزيد من الخوف، وقليل من الدهاء:
«القادمات السبع هن خليط من سنابلَ مائلات وأخرى منتصبات، الفارغات هن المنتصبات على دمائنا والممتلئات هن المائلات إلى قلوبنا».

15 كانون الأول 2000

---

* شاعر فلسطيني يقيم في رام الله.

شـهادة قلـب مرتبـك

محمود أبو هشهش*

أخسر المرأة التي تحبني دونما أكسب المرأة التي أحب.. أخسر المرأة الأولى، لأن ما يحدث الآن لا يساعدني على استحضار مفردات الحب والاشتياق لتسعفها عبر الهاتف في غربتها، كما أنني لا أكسب المرأة الثانية لأن ما يحدث الآن، أيضاً، لا يساعدني، أيضاً، حتى على رؤيتها.

وأنا بينهما حائر، لا أستطيع بعد أن أجد عزائي في الحب الذي يفيض عليَّ عبر الهاتف أو البريد الإلكتروني من خلف سبعة أبحر، كما لا أجد في الوقت ساعة، ولا في المكان متسعاً للقاء المرأة الأخرى في فضيلة الحب الرذيلة الآن هنا.

تبدو حيرتي ضربا من الترف في بحر الدم هذا، لكنني أقف على حافة أخشى أن تلزمني طويلا ولا أستطيع الفكاك منها، أقف بين امرأتين في حضرة الأم.

(أيتها الأم، كفي عني نظرتك الحنية، كبرت، وآن لي الفكاك من دفء حضنك، آن لي الذهاب في مغامرة ما أو مقامرة).

أقف الآن على سفح يطل على سفح، وبينهما الطريق إلى الله أو القدس. أطل من الشرفة على تراب معركة مطفأة، وورائي نيران معركة دائرة. وشبابيك بيتي كثيرة وشرفتي من زجاج، لا يصد شعاع الشمس، أو مسمار البرد. البيت في مرمى الرصاصة، ومتحفز من أن يستبيحه الجنود كما فعلوا ذات يوم.

أبقي باب الشقة مفتوحا، ليستطيع بشار، ابن أختي ذو الخمسة عشر شهرا، أن يركض إليَّ من الشقة المقابلة وأحمله، وألاعبه واثقا من ابتسامتي وشهيتي لمداعبته، وأترك الشبابيك مشرعة كي يطير دخان السجائر من رئة الشقة، ويدخل الهواء إلى رئتي، لكنني بالطبع لا أستطيع منع أصوات الرصاص

وضجيج الهيلوكبتر، والعبرية التي تتدحرج إليّ من قمة الجبل عبر مكبرات الصوت حيث تجثم «بيتسيغوت» كأفعى تنفث سمها في كل الجهات، من الدخول، أيضاً. أما أصوات سيارات الإسعاف، فقد غدت جزءاً من إيقاع الأذن الدائم.
قبل شهرين فقط، كنت أجلس على الشرفة ليلا، أنا والمرأة التي تحبني، نتأمل ليلاً شجيرات سرو على الجبل المقابل، نشكل الشجيرات كيفما يحلو لنا، وكأنها سرب غيوم أو بقايا قهوة في قاع فنجان، وبقيت قراءة تلك الأشجار تشغلني حتى بعد ذهاب تلك المرأة، لأنها، الشجيرات، أشغلتني قبل مجيئها، حتى صعدت إلى التل المقابل، فإذا هي شجيرات لا أكثر ولا أقل، كانت بجوارها تينة، أغوتني بحبتين فسقطت، وعدت إلى البيت، ومن شرفتي، نظرت إليها وكان الليل أسود، فإذا بالشجيرات لم تعد شجيرات سرو فقط.
والآن، الشجيرات لا تزال على السفح، وتبدو كخمس عجائز يتبادلن الحكايات عن بلد خرافي تحت قمر رسم بفرجار. المدفعية التي قبعت مرة قرب تلك الشجيرات لم تعد هناك، علها نفسها هي التي تربض وأخر الآن، في أعلى الجبل شمال شرقي، من حيث ينطلق الرصاص إلى القلوب أو العيون.
ليس الزمان بيروت تماما، ولا المكان آب، وباستطاعتي حتى الآن أن أعد القهوة دفعة واحدة، وبتعليمات محمود درويش الكاملة، ولكن دونما احتفاليته، فالقهوة فاضت عن حاجة الجسد لها، دون أن يمنحني، لا الزمان رام الله، ولا المكان تشرين، فرصة أن أشرب فنجان قهوة واحدا مع تلك المرأة التي أحب بالرغم من المبالغة في تحديد مواعيد كثيرة للالتقاء على ذلك الفنجان.
ولأنني لم ألقِ حجرا واحدا، فإن كلماتي ليست صلبة، ولا يبدو أنها تصيب بسوء، وفي الوقت الذي يساوي الحجَر رصاصة في القلب، تصبح الكتابة أصعب وأكثر حرجاً.
في البدء، لم أكن واثقا من أن ما يجري، سيضيف معنى جديدا إلى جملتنا المرفوعة كراية بيضاء مخروقة، وخشيت كالآخرين، من طعنة إضافية من خنجر اللامعنى. واحتجبت في زاوية الحزن والقهوة المرة والتدخين، لكنهم خلف أكياسهم الرملية وفي أبراج الموت كانوا يسخرون مني.
ستة جنود في الجوار، صعدوا سطحيْ عمارتين مجاورتين لشقتي، لم يصعدوا سطح البناية التي أسكن فيها، لأنها لم تعد الأعلى. وقد اختار الجنود تلكما العمارتين لأنهما الأعلى والأنسب للقنص والأحصن كذلك، فما زالت «متسادا» تلهمهم خططهم وتمترساتهم الحربية، وأماكن انتحارهم إذا اقتضت الحاجة. (ملاحظة مهمة: بيتي خارج حدود منطقة أ).
إنهم يحتاطون أمنياً، في حال أصبحت منطقة «المعلوفية»، حيث أسكن، ميدان الحدث، كما كانت قبل أربع سنين وشهر، حيث اعتلى الجنود هذين الجبلين ورافقتهم الدبابات، وغطتهم طائرة هيلوكبتر حديثة، وغرقت السفوح بالدم المتسلق للقمتين، بينما كانوا يبحثون عن خرافتهم في ذلك النفق الدموي، تحت ذهب الأقصى اللامع في شمس أيلول. في ذلك الوقت، كانت شقتي، وقبل أن تكون شقتي، معقلا لقناصاتهم، وفي شرفتها، أوقدوا نيران يقظة قتلهم، وغادروا خلف الجبل، لعل أحداً منهم لم ير تلك الشجيرات أبدا، وإلا لكانوا أطلقوا النيران عليها، لقد كانوا منهمكين بمنظر الدبابة الفولاذ، التي أفرحت قلبهم الحديد وهي تنثر القلوب الصاعدة.

صعودهم على البنايات المجاورة، وترشيح المكان لأن يصبح ساحة حرب أحادية، جعلني أتأمل شقتي أكثر، وأتحسس مكان الخطر والقوة فيها، وفي جولة تفقدية لشقتي، وجدت أن المطبخ مكان خطر، فشباكه يواجه بنادقهم، وحينها، يصبح فنجان القهوة أو كأس الشاي مغامرة، وكانت هناك أسطوانة غاز إضافية في شرفة المطبخ الصغيرة، حملتها عدة مرات وخضخضتها لأتأكد أنها فارغة، ومن ثم فتحت صبابتها، لأن أحداً لا يستطيع النجاة إذا أصابتها رصاصة طائشة وما أكثره. غرفتا النوم كذلك حالهما حال المطبخ، فكلاهما في الجهة نفسها، وهناك غرفة نوم ثالثة، لكنها على جهة الشارع العام ومفتوحة على الفضاء الذي تغلق شماله مستوطنة «بيتسيغوت»، أما الصالون، فلا يصلح سوى لرقص الرصاص، فهو مقابل تماما لمعقلهم المقابل، حيث ربضت مصفحتهم وانبطح جنودهم ذات مرة.
هنالك مكان واحد آمن، إذا جن الرصاص الثقيل، وهو الممر الذي يفصل غرفتي النوم عن الصالون حيث المكتبة. أستطيع هناك الاحتماء، وقراءة لوركا رغم ما قد يسبب ذلك من حرج شخصي كبير.

قبل ثلاث عشرة سنة وخلال الانتفاضة الأم، لم يكن في بيتنا في المخيم أي جدار يمكن له أن يحمي جسداً من أي أذى محتمل، لكن لم تكن بنا حاجة للجدار آنذاك، فقد كناه أو صرناه. خرجنا إلى الشارع وسفوح المواجهة المجاورة حيث السماء سقف الأرض، وبينهما كل الموت المحتمل. لكن الأمر الآن مختلف بالنسبة إليّ على الأقل، فالثلاثون ليست ست عشرة، والكتابة تعودنا على التزام البيت أكثر، كما تعلمنا المابعد حداثة تفكيك البطولة. من يقرأ الآن.. هنا؟

حتى إن العدو لا يمنحنا فرصة أن ننزل من سماء البطولة إلى أرض البشر. نحاول أن نتصيد الحياة من احتمالات نفيها، نحاول أن ننتبه إلى عوالم مهملة صادر انضغاط المكان بالأعداء انتباهتنا إليها. لكنهم لا يتركون مشجبا لنعلق عليه جلد النمر الذي علينا لينكشف الغزال الذي تحته، دونما أن يخلعوا هم جلد الغزال الذي يغطي ضبعاً بالرغم من عدم مناسبة قياس ذلك الجلد لجسد الضبع الخرافي الذي يكبر في عتمة المكر والخديعة. والعزاء الوحيد يتمثل في حتمية أن يضيق الجلد على الجسد من كثرة فرائسه، رغم حرصهم على ترميمه وتوسيعه برقع جديدة، كما أن الغزال لا يستطيع المواصلة بحمل جسد النمر الثقيل طويلا. لكنهم لا يتركون له فرصة خلعه ولو من أجل الراحة. وفي هذا العالم الغابة، حيث الجلود ملتبسة تماما ولا تدل على المتلبس بها، تكون الحياة أقرب إلى الفعل المسرحي، وخصوصا حينما تصعد الخرافة لتحتل الخطاب.

من يتكلم عن الحرب؟، لا حرب هنالك، بل اجتياح صلب يستبيح أجسادا عارية.
الشبابيك الآن مصدر قلق وموت، وقد كانت كذلك في فترات كثيرة، ولكن لا يزال الناس هنا، يصرون، حينما يشيدون بيتا أو عمارة، على فتح أكبر قدر ممكن من الشرفات والشبابيك في بيوتهم، وفي لحظات كهذه، تتمنى أن تنغلق الجدران تماما أو تتقزم الشبابيك إلى طاقات صغيرة مرتفعة. وبالرغم من خمسين عاما من الاحتلال، لا يوجد بيت فيه ملجأ، إنها إرادة الحياة، وشروطها لا زالت تملي على الناس حب

الشمس والسماء.
الطائرات! من لم ير الطائرات عصر يوم الخميس، كنت على الهاتف في شقتي، وكانت أختي على الطرف الآخر في الخليل، أخبرتني أن الإسرائيليين سيقصفون رام الله الساعة الثانية والنصف، نظرت إلى الساعة وكانت الثالثة إلا ربعا، فضحكت، وأخبرتها بالوقت، فهمهمت بخجل وارتباك وما إن أغلقت الهاتف، حتى بدأت القذائف.
جهاز التلفاز على بعد خمس خطوات من الشرفة، وباستطاعتك أن تناوب النظر والسمع إلى شاشة السماء أو التلفاز في الآن نفسه، وطبعا كانت الشرفة نقطة التوازن الممكنة المستحيلة، فالتلفاز في هذه الحالة اغتراب وإقصاء عن الواقع، ومحاولة للتحييد. والشرفة، هذا المكان اللامنتمي، تصبح أقل حيادية على الأكثر. كلما أذهب إلى الشرفة، لأشاهد طائرات الكوبرا أو الأباتشي، لا أعرف بالضبط، لكنها بالتأكيد أمريكية الصنع، وهي تستعرض قدراتها الفائقة فوق سماء فلسطين، بعد أن استنفدت سماوات العراق والجنوب، يتعلق بي بشار كي أحمله، وحملته كالعادة، إنه بالطبع لا يعرف ما يدور الآن. يُقلِّب عينيه، ليسقط نظره على قطة تسترخي على سور منزل الجيران القريب «بس، بس» يصرخ مغتبطا، محاولا لفت نظري وإنزاله من سماء الكوبرا إلى أرض القطط. كانت رفوف الحمام تطير من هناك، من شمالنا، وتأتي باتجاه القدس، حيث البيت.. كان الحمام يطير رفاً بعد قصف.

لا أزال مصلوبا على خشبة الحيرة. قلبي قط بري، يسير على الحد بين الغابة والمدينة. الناس في بيوتهم، الشوارع خالية إلا من الخوف والاحتمال. وأنا أتوغل في طريق الخسارة، وأتأكد يوماً إثر يوم من أنني أخسر الامرأتين معاً دون أن أكسب أية حكمة من وراء تلك الخسارة غير اليقين بأنني مقامر جريء القلب أحيانا، قليل الحظ دائماً.
نبتت مغامرة المرأة الأخرى التي أريد، من رغبتي الشديدة في امتحان مساحة الإيهام بقدرتي على المناورة، قلت للمرأة المركز إنني كنت أظن أن الحب حرية، فإذا به سجن، وأنني أحتاج الآن ذلك الوهم بأني حرٌ، فردت علي بأن من يحب، يجب ألا يفكر كذلك، وأنه ليس حباً ما أقول. لم تقتنع، ولم أقتنع. فتصاعد الموقف فينا بتغير أنواع السلاح المستخدمة خارجنا أرضا وجوا وبحرا، لتتصاعد حاجتي لمجرد وهم، إلى ضرورة وضع الفكرة على المحك. لا أظن أن رؤية أي واحد منا على طرفي خط الهاتف سقطت، لسبب واحد، وهو استثنائية الظروف، كما لم تعد الحاجة للوهم، الفضاء الذي يمكن أن تمنحه المرأة الأخرى، التي أريد، مجرد المساحة الضرورية للقصيدة، بل أصبحت تمثل الرغبة العارمة في القبض على الحياة تحت تهديد الموت المتصاعد.
إنني مشدود إلى اللاتوازن، وكلما وجدت مركزا للقلب، بحثت عن هوامش تأرجحه.
(أسبوعان خارج السياق يشظّيان القلب أكثر)

عزيزتي
.. لم أعد بعدُ إليَّ، لا زلت مأخوذاً، كأن قلبي لعبة يتسارقها الأطفال وأنا أحدق في قلبي المتناثر هنا

وهناك.
لم أعد بعدُ إلى أي شيء.. لكن صوت القصف الليلي، وحشود الجنازات النهارية تقول لي إنك عدت، وإنك في الأرض الصواب.
لم أتمكن بعدُ من رؤية من أحب بامتياز: أبي وأمي، وهما على بعد قذيفة مدفع فقط، والطريق إليهما تحتشد بالرصاص الطائش والمتربص.
عدتُ فقط إلى عادتي اليومية: قهوة وسجائر. وفجأة، انتبهت أني تشظيت أكثر من أي وقت مضى، وفجأة انتبهت أن أناسا جددا تركوا بعض أشيائهم فيَّ، ومضوا إلى أيامهم وعاداتهم. كيف باستطاعة القلب أن يحتمل كل هذا الحب؟ ألكي يواجه كل هذا الموت؟!.
لا أترك الآن أحدا يعبرني، ليعبرني فقط، بل أهيئ له مساحةً ما على جدار القلب. فهل تركت أيتها الشقية، لفلسطيني عابرٍ حصةً ولو صغيرة على جدران قلبك العالية؟ أيتها المرأة الطفلة، كيف تجيدين المشي على حافة الحبِّ؟!، فالحافة مساحتي أنا.
كنت أدرك تماما معنى ما قلته لك على حافة الأطلسي، وأعرف معنى أن نكون معاً، ولو لعدة ساعات حمراء مسروقة من برنامج أبيض متوسطي ومن جهنم شرق متوسطية، وكنت أعرف أن كلاً منا سيعود ثانيةً إلى ضفته ليستطيع منها إعادة صياغتها، وإضافة لون جديد إلى طيفها. قد يشبه ذلك قصة تلك المرأة التي ثقب واقعَها الأبيضَ اللانهائي حلمٌ قصير ملون، ومن ثم عادت إلى فضائها اللامحدود ثانية لتجده لم يعد كما كان قبل ذلك الحلم. إنها روايتك أنتِ، فكيف غفلت عن فهم ما قلتهُ لكِ؟ إذاً، فقد كنا متفقين منذ البدء، فمن أين جاء سوء الفهم؟
والآن وأنت هناك وأنا هنا، نستطيع فقط تبادل الكلمات التي تشبه الحب، ولا أعرف بأية عين يمكنك قراءة هذه الرسالة، فأنا أكتب لأن الكتابة وحدها تستطيع أن تذكرنا، بعد حين، أننا كنا هناك، ذات مرة، جسدين منطلقين وروحين مرتبكتين وقلبين على حافة الحب.
يونس، شاب مراكشي في غاية اللطف واللياقة، أول ما جمعنا جدارية محمود درويش، ومنذ ذلك الوقت، أخذ يوافيني دائما بآخر الأخبار عن الضفة الأخرى، «اليوم ثلاثة شهداء».. «اليوم سبعة شهداء».. «اليوم هادئ نسبيا».. إلخ.. طوال الخمسة عشر يوما. «أنتم لا تعلمون كم نحبكم أيها الفلسطينيون، وليتنا نستطيع الوصول إلى هناك»، يقول لي يونس، ولم يكن لدي أي شك في صدق ما يقول، فلم يحدث أن التقيت بأي شاب مغربي خلال فترة زيارتي لمراكش، ولم أسمع منه ذلك القول بحماس شديد. «أتعلم يا صديقي»، يضيف يونس، «كم أتمنى لك الشهادة، وليتني أسمع خبر استشهادك على التلفاز، فتكون لي شرف معرفتك». بقدر ما فاجأتني هذه الأمنية، بقدر ما كنت قادرا على استيعابها، لأنه يتمناها طوال الوقت لنفسه وشعر أنني أتفوق عليه باحتمالية الاستشهاد. لم يكن بمقدوري سوى أن أبتسم في وجهه. بقي مصرا على التقاط صورة معي، وكل يوم يذكرني بذلك حتى تسنى له، أخيراً، إحضار كاميرا قبيل ساعات قليلة من مغادرتي مراكش، طلب من شاب مغربي كان في الجوار أخذ الصورة لكلينا، وقادني إلى منطقة قليلة الضوء نسبيا، وكان الوقت حوالي التاسعة مساء في دار الباشا حيث كنا، مجموعة من شباب البلدان المتوسطية العربية والأوروبية، ما عدا «إسرائيل» بالطبع، نباشر فعاليات

ورشة عمل حول ترجمة الثقافات بينما كانت إسرائيل منشغلة بترجمة ثقافتها إلى نار وحديد على رؤوس الفلسطينيين، وقد كانت دار الباشا، ذات مرة، مقرا لأحد أكثر حكام المغرب قسوة وطغياناً، قلت ليونس، لنذهب إلى منطقة حيث الضوء أكثر، وذهبنا، وضع يده على كتفي ومال برأسه إلي وابتسم، وكذلك فعلت، أمام رمشة عين الكاميرا، ثم تنحيت به جانبا، وقلت له، كما التقينا على الشعر، فلنفترق على الشعر، وقرأت له قصيدة محمود درويش «ونحن نحب الحياة إذا ما استطعنا إليها سبيلا«، ثم ودعته ورحلت، لكنه لم ينس أن يقول لي، سنبقى على اتصال. «بالطبع» رددت عليه، بينما كان جسدي يغيب في الممر المعتم إلى الخارج.

لست أدري هل سيشاهد يونس التلفاز ليتابع الأخبار كما اعتاد أن يفعل، أم أنه سيكون دائما متحفزا ليسمع ذلك الخبر؟، كيف سينظر إلي في تلك الصورة الفوتوغرافية، كصديق أم شهيد؟

كأن الوقت هنا مدقوق بمسمار، تختلط المشاهد في ذاكرة القلب، والكتابة المكدسة في درج خزانتي، وحدها تستطيع ترتيب تلك الذاكرة. ينفتح القلب للمرأة، فينغلق الوطن على الحب ويخنقه، هذا ما جعلني أبحث عن رسالة كنت كتبتها لامرأة عبرتني، واخترقت ضفافي، ومضت دون رجعة، خائفة من حدود هذا الوطن التي تنغلق بريموت كنترول عقب أمر عسكري، وما إن وصلت أهلها على ضفاف بعيدة، حتى اتخذ الحب من الهاتف طريقه الوحيد، فكسرت الهاتف والقلبين، رغم ما كنت قد كتبت لها ذات مرة قبل أكثر من ثلاث سنين وعنونتها «رسالة من منطقة (أ) إلى امرأة خارج الحدود»:

«لماذا لم نلتق قبل ذلك النهار المشمس؟ لماذا لم نلتق بعد ذلك الصباح العابس، حيث تركتك تذهبين منكسرةً إلى الجسر الذي انفتح لخمس دقائق، وذهبت لأختبئ بحزني، وأخبئ جسدي المحرم عن مرأى الجنود تحت تلك الشجرة الوحيدة العارية؟ لماذا لا نلتقي؟.. لن تذبل أزهار المزهرية أكثر مما ذبلت، لقد جففتها وغسلت المزهرية مما علق بها من وحل وترسبات، ثم أعدت إليها الأزهار المجففة، وقلت: ستبقى في المزهرية إلى ما شاء الوقت والمسافة، لم أستطع التخلص منها، لأنها أزهارنا، فأنت من انتقاها وقطفها ووضعها في المزهرية، وأضاف إلى الماء ملعقة صغيرة من السكر، وأنا من اعتنى بها بعد ذهابك، وواصل تغيير الماء وإضافة ملعقة السكر، ومن تكبد في النهاية رؤيتها ذابلة، حزينة.. حينما جئت لزيارتي في سجني، لم تتوقعي أن يغلق السجان باب السجن على السجناء والزائرين معاً. لم يكن هذا سهلاً على عصفورة اعتادت الطيران والتحليق أينما شاءت الأجنحة، ولكنه ليس سهلا أيضا على طائر حبيس يحلم دوما بفضاء جناحيه. أدركتُ حينها أنك أدركتِ سر هذا الوطن المصيدة، وأنك منذ تلك اللحظة، ستنتبهين أكثر إلى موطئ قدميك وقلبك. ومنذ ذلك الصَباح الفراق، أصبح كل منا سجين الآخر وفضاءه الواسع.. أجد متعة كبيرة في الكتابة عنك أو إليك، وأعترف أنك علمتيني كثيرا عن أسرار الكتابة، ولعل الحب سر الكتابة الأول والأزلي، ولا أخفيك سراً أن الموت كذلك سبب فاجع للكتابة..».

أكتب لأخيط جراح القلب الذي لم تمسه الرصاصة التي اخترقت مئات القلوب، لأن القلب لا يلتزم كثيرا بشروط اللعبة، ولا يعبأ بقوانين الحرب والحصار.

والقصف الذي اعتقدنا أنه استثناء في البداية، قد غدا برنامجا يوميا تشارك فيه كل معدات الجو والبر والبحر. ويبدو لي أن بعد قليل فقط، سوف يكون بوسع أي شخص أن يكتب عن قلبه تحت القصف

والقتل والحصار، وبحرجٍ أقل بكثير من الذي شعرته. كما يبدو أن هذه المعركة سيحدد مصيرها القلب، وحتى ذلك الحين، فليسامحني الشهداء، وليلتمس لترف قلبي الأحياء عذراً.

– كم يعذبكَ القلبُ!
يخطئُ أكثرَ مما يصيبُ، ارمه عَ الرصيف
على بعد عشرين مترا من حاجز عسكريْ
علَّ طفلاً يمرُّ به في أواخر هذا الخريف
فيرميه نحو الجنودِ

ولا تستمتعْ
لملاك سيهمسُ فيكَ:
بأخطائه يكبر القلبُ..
بأخطائهِ يتسعْ..

---

* شاعر فلسطيني يقيم في رام الله.

دروس أولى
في الافتراض وعدوى التماثلات

عبد الرحيم الشيخ*

الافتتاح: 1 أيلول 2000

«ما جدوى الافتراض؟»، سأل التلميذُ أستاذه.
-«أن يقترض العدمُ من الوجود حصةً تمكِّنه من اكتشاف المرآة».
«وماذا يفعل العدم إن لم تنعكس صورته على المرآة؟».
-«يعيد الافتراض من جديد بأن الوجود لم يمنحه الحصةَ الكافية من الوجود، ويطلبها ثانيةً».
«وإن طلبها، ومنحه إياها الوجود، ولم تنعكس صورته على المرآة؟».
-«يفترض أن المرآة غير موجودة، وتنتهي المشكلة».
«ولكن، ماذا يفعل إن رأى صورةً أخرى في المرآة؟».
-«أية صورة يمكن أن يراها.. أية صورة تقصد؟».
«أقصد أن يرى ظلَّ الوجودِ الواقفِ خلفَه، والذي منحه حصةً غير كافيةٍ لرؤيةِ ذاته، لكنها كافية لرؤية الآخرين!».
-«إن كان ذلك، تكون المرآةُ موجودة إذن».
«لكن العدم لم ير صورةَ ذاته بعد» صرخ التلميذ..
-«وما الحل في نظرك؟»، سأل الأستاذُ بدهاء غير متكلَّف «..لو كنتَ مكان العدم، ماذا كنتَ ستفعل؟».
«أكسر المرآة بيمناي، فإن رأيتُ شظاياها ملونة بدمي، ألعقه باليسرى، فإن أحسستُ بملوحته، أكن موجوداً».
-«هذه تماماً هي جدوى الافتراض.. ألديكَ افتراضات أخرى؟».

«نعم.. كثيرة».

درس أول (دين): 8 أيلول 2000

لو أدرك الفلسطينيون زمن النبوّات والموائد المنزلة، لتواشجت انكساراتهم وما تبقى فيهم من صبر على الحياة في انتظار مائدة قد تسهم رياح أيلول في حرفها تماما لتسقط عليهم دونما حظوة برؤية ما عليها من معجزات خضرائها لغبرائها. ولو أدركهم أحد الأنبياء،على فترة من البيان في مديحٍ الأعالي، سائلاً مَهْرَ اتباعه، لتوحَّد الفلسطينيون، في نشدان معونة لونية من خالق الألوان وتحوُّلاتها، ليدركوا بها مسوغات قصورهم عن إدراك إعجاز بلاغة استواء «الظُّلمات والنور». ولو أدرك غيرهم نبوَّة الزمن في شعر نيتشه، لأيقنوا أن الناظر إلى الآخرين بوصفهم قطيعاً، والمجهد منطقه الذاتي للاقتناع بقطيعَيَّتهم،عليه ألا يعض إلا على إصبعه هو، ندماً، إن أدركه القطيع وضربه بالقرون أو داسه بالحوافر.

درس ثان (تاريخ): 15 أيلول 2000

لو كان في وسع الوعي الأمريكي أن يرى أكثر من أرنبة أنف حاملات طائراته، الصارمة جداً في الذود عن «كرامة الإنسان» في خليج البصرة، وما فيه من أرواح أطفال ملَّحها إسمنت ملجأ العامرية بأقسى درجات الانصهار وأقصاها في «حب» الآخر قبل عقد قريب، لما فُوجئ بما أنتجه ذلك «الحب»، على امتداد ما للعرب من أرض، من رغبة جامحة لتبادلَ «الحب» مع الآخر، وبالديناميات ذاتها، تلك التي لا يعرف غيرها: «ديناميات الحب العنيف»، التي اشترع لها الفاتحُ كولومبوس «طوقَ حمامة أمريكيا»، بجلود هندية ودماء هندية، حمراء تماماً من جنس أصحابها، حينما أكمل الرجلُ الأبيض للهنود الحمر دينهم، وأتم عليهم نعمته، ورضي لهم الفناء ديناً يجاوزون به جسر «طبيعتهم» الفانية نحو أبد «حضارته» الباقية، له لا للآخرين. ولو أدرك الإعلام الأمريكي حكمة الحب بغير ما يعرف عن «الحب»، لرأى ما في أبيض الصورة من وضوح الدم الفلسطيني قبل أن يدهمه أسوَدُها نافذاً من بؤبؤ شاشاته التي لم تمنح أبيض الصورة، الحيادي، فرصة الظهور، فأرغمها أسودُها، المنحاز إلى بياضِ جوهره بامتياز، على قطع البرامج: هجوم «إرهابي» على فرقاطة أمريكية في خليج عدن. لقد أصبَح أسود الصورة واضحاً بما يكفي لذوي البصائر الاعتيادية، لكنه لم يكن ليُرى، كما ينبغي، لآخرين أصيبوا بعمى ألوان دائمي، قطع البرنامج ثانية: مقتل جنديين إسرائيليين، ضرباً، على أيدي جموع غاضبة في رام الله.. اكتمل الأسودُ تماماً، امتص ألوان الشاشة كلها، بدت الرؤيا أوضح.

درس ثالث (حساب): 22 أيلول 2000

لو أدرك الفلسطينيون أن قيمة الأعداد السالبة تزداد كلما اقتربت من الصفر،لآثروا الصفر على الـ(–21)، ولآثروا واحِدَهُم على صفر العرب، فهو أعلى منه قيمة وأجلّ منزلة. عما قليل، كان

الفلسطينيون وحدهم، فوشى لهم تفرُّدهم بالفرادة، ولم يكن ما احتازوه من وعي قوميٍّ إلا قطرة ماء جففها ملحها الذاتي في صحارى العرب، الكبرى والصغرى، في حلم الفلسطينيين وواقعهم. لقد أيقظت فيهم الفرادة، الآن، حسَّ التفرُّد.. انتظروا القمة طويلاً، فانزلقت بهم إلى القاع.. فكان الصفر أكبر الأعداد السالبة.

درس رابع (جغرافيا): 29 أيلول 2000

لو قُدِّر لابن بطوطة، ولو ارتضى لنفسه قبل التقدير أو بعده، أن يشهد رحلات أيلول في «أرض الفلسطينيين»، لأعاد مَفْهَمَةَ مسألية الرحلة ومقصديتها من جديد. ولو كان ذلك، لحظي، على الغالب، بمقابلة على إحدى الشاشات الهامة لتفسير رحلة الجنود الإسرائيليين إلى قلب رام الله، «المفتوح» قسراً بعمليات زملائهم من قَتَلَة الجو.. المقصديات في فن الرحلة، عند ابن بطوطة، ثلاث، مهما تنوَّعت تشكيلاتها: الصيد، والعلم، والمغَامرة. أمن مقصدية رابعة.. ربما، الموت. الموت أعلى المقصديات وآخرها تحصُّلاً، وإن كان أوشكها حدوثاً. ولو تيسر للصحفي الإسرائيلي «اللامع» إيهود يعاري أن يجري هو المقابلة مع ابن بطوطة، لسأله بعربيته المستعربة: ماذا يعني أن رحلة الجنود الإسرائيليين إلى رام الله كانت رحلة صيد وعلم ومغامرة مع أنها انتهت بالموت؟ لأجاب ابن بطوطة: رحلة صيد لأنها جاءت في موسم «الصيد»، وموسم صيد الفلسطينيين، عادة، يبدأ في أيلول. وهي رحلة علم لأنها خروج في سبيله لانقطاع أسبابه في «أرضهم» التي كانوا فيها، والعلم، كما تعلم، يبدأ بالمهد ولا ينتهي إلا عند اللحد. أما كونها رحلة مغامرة، فلأن من طبيعة المغامرة جهلَ النهاية أو تجاهلَ تذهُّنها، رغبةً في اجتناب ما يثبط عن القيام بها، أو رهبةً مما يحدثه تذهُّنها من فزعٍ في قلب السالك.. انتهت المقابلة.

درس خامس (رسم): 36 أيلول 2000

لو عاد محمد الدرة إلى صفه، لعرف بالتأكيد أن المنهاج تغير، وأن حصة الرسم غدت سياسةً. ولأدرك كم كان توفيره لأجرة التقاط صورة في أحد «استوديوهات» غزة مجدياً. لقد نال بـ«المجان»، المجاني جداً، ملايين الصور في لحظة واحدة. وقد جاوزت صورته «ألبوم» العائلة الصغيرة والصغير، لتحل في كل مكان يدرك أن وعي الكائنات تغير، وأن لوحة المفعولية غدت، في فلسطين وبالفلسطينيين، أوضح. تلاميذ أوهمتهم ثقافة السياسة البائسة، أو بؤس الثقافة المسيَّس أن أحمر الصورة قد انتهى إلى الأبد، ما من دم سيراق.. فرسموا حمامة نوح ولمّا يأت طوفان المدينة بعد. لم يَرَوا في الصورة إلا أبيضها. حتى جيءَ بالطوفان أحمر. أعادوا مزجَ الألوان المتبقية في ذاكرة البؤس، ورسموا: محمد الدرة. يا لها! يا لبهائها صورتك الدرِّية، على مقعدكَ الدريّ، يا محمد! ويا لهؤلاء الصغار الذين لا تعلق بذاكرتهم إلا نبوءة الفاجعة! يا لمقعدك، ويا لما حمل من صور!

درس سادس (قواعد): 43 أيلول 2000

لو كان للفاعل في العربية أن يكون مفعولاً، وللمفعول أن يكون فاعلاً، لتغيَّر صوت الزمان، ولكان وجه المكان تغير. ولو كان لفاعليَّة المعنى أن تعزل فاعليةَ التركيبِ عن وظيفيَّتها، لكان الوضوح أوضح مما هو عليه من الغموض. «الفاعل في العربية، وغيرها من الساميات، من يقوم بالفعل، أو من يقع عليه الفعل إن كان نائباً. والمفعول من يقع عليه فعل الفاعل.. كذلك». وقد يستتر الفاعل بالضمير لفظاً ومثله المفعول.. وقد تستدعي رفعة المقام استتار الواحد منهما في المعنى، أو انقلاب وظيفته تماماً.. يا لهذا التشاكل الفذ! لقد كان المقَام الفلسطيني سامياً، فانقلبت له التراكيب، وانحرفت لوصفه وظائف اللغة انقلاباً قيمياً قبل انقلاب المعنى. كان انقلابَ انحياز الواضح إلى وضوحه، فما أوضح الواضح، وما أنزه انحيازه: «قُتل» محمدُ الدرَّة، وكان فاعلُ القتل مستتراً وجوباً، فأُلحقت الفاعلية بمحمد الدرة! لم يُرَ في المكان إلاّه وأبوه متفرِّدين كما واحد كانا، وكان الرصاص كثيراً. لكن الفَاعل استتر، وجوباً، ومعه استترت كثيرٌ من «الضمائر».. فأدرك إعلاماً اليسار الإسرائيلي مهمَّته الإسنادية لواقع الفاعل الغائب، وراح يُنقِّبُ عن اجترارية جوقته التي اكتسبت بعض الطليعية المستعارة أيام «رحلة» شارون إلى الجنوب اللبناني في السنة الثانية من عقد الثمانينيات، وكان الصوت موحداً سلفاً: لقد كان أبو محمد الدرَّة مخطئاً إذ مرَّ به من هناك!! إنها طبعة رديئة الضبط والتنقيح من حملات «تأثيم الضحية» التي يمارسها اليسار الإسرائيلي مزهواً بنرجس يساريَّته الذي لا يملك سواه، والذي لا حياة له من دونه. حياة اليسار في يساريَّته الفولتيرية التي تُطل على هاجس الإنسانية التي ليس فيها من بعيد، من خارجه تماماً، لا لتضيئه، بل لتقف في ظله أكثَر.

درس سابع (منطق): 50 أيلول 2000

لو كانت دراسة المنطق إلزاميةً في أكاديميات الصحافة، لما كان في وسع تيد كوبلان استضافة ممثل عن مجتمع الضحية وأخرى عن مجتمع جلاّدها ليدير بينهما ساعة من ديماغوغيا الحوار «الموضوعي»، الحوار الذي شفَّ بيسر عن حالة من اللاسواء الإعلامي غير البعيدة كثيراً عن حالة اللاسواء السياسي بين دعاة التقابلية التاريخية للطرفين. الصحافيان ناصر عطا ودوريت لونغ: فلسطيني وإسرائيلية يهودية خارجان للتو من غرفة «المكياج» في استوديوهات محطة الـABC News وجاهزان تماماً «للتمثيل» بكل ما يقتضي التمثيل من أناقة، تمثيل «طرفي النزاع في الأزمة الشرق أوسطية». وتيد كوبلان يدير بينهما الحوار بكل ما أوتي من تواطؤ موضوعي لفكرة التقابلية التاريخية بين ضحيتين تاريخيتين زَجَّ التاريخ بإحداهما، قسراً، لدور الضحية، فيما اختارت الأخرى دور الجلاد/ الضحية، لتندغم حركة الدراما الواقعية في حركة التاريخ الافتراضي، وتحيل خطيَّته الاعتيادية إلى عمودية استثنائية تمعن في توليد مَفْهَمَات السياسة وصك مجازات التماثل باسم الواقعية. لقد كانت مقاربةً كوبلان بين تسجيلين تلفزيونيين، واحد لواقعة استشهاد محمد الدرة في غزة، والآخر لمقتل الجنديين

الإسرائيليين في رام الله، محاولة استعراضية صغيرة لا تدانيها سذاجةً إلا رسوم «الفروق الثمانية» في استراحات الصحف الشعبية. من جانبها، أمعنت دوريت لونغ في نفي ما في الصورتين من تقارب، ليس بدعوى غياب التقارب وجودياً، بمقدار تعارض التقارب براغماتياً مع «شرف المعنى» في أدبيات الدم وبروبوغاندا طهارة السلاح في الفكرة الصهيونية، إذ لا يمكن لدم الأغيار أن يوازي دم اليهود مهما بلغ انحراف المجاز في توصيفات الحق ومَفْهَمَات العدالة، فتلك مفاهيم توقيفية سَهْميَّة (باتجاه واحد فقط)، وغير خاضعة إلا لأخلاقية التذريع الصهيوني الذاتي، التذريع الذي لم يمنع لوَنغ من إلقاء اللوم على الفلسطينيين «لأنهم يستخدمون الأطفال في الحرب بغرض الكسب الإعلامي». أما عطا، فقد أسعفته نباهته الشعبوية في التقاط بعض الفروق بين الصورتين، فـ«الحادثتان بربريتان، رغم اختلاف سياق الأولى عن الثانية.. وبصرف النظر عن الانتماء الإثني، فالموضوعية المهنية تقتضي إدانة الحادثتين». بدا كوبلان أكثر ابتهاجاً في آخر الحوار، وكأن خطيئة القتل استوت في الحالتين، لتحيلها بوطيقا الكلام التسطيحي بين عطا ولونغ إلى خطأ مجازي أو مجاز خاطئ في التوليف بين ما لا يأتلف: في الموازاة بين محمد الدرة الذي لم يكن مسلحاً إلا بكثير من اليقين المدرسي والحب للحياة الذي مكنه من السير في شارعِ موته الفسيح دونما استراق لخطوته الطبيعية الصغيرة في مكانه الطبيعي الصغير، وبين جنود محتلين اخترقوا قلب مدينة مدماة في مهمة ميتااستخبارية مزودين بكل ما أوتي السلاح من «لا طهارة» للفتك والاغتيال، ومفتقرينً إلى أدنى ما يمكن لكائن بشري احتيازه من يقين يفضي به إلى موت طبيعي أو حياة طبيعية.. لقد بدا التماثل بين الطبيعي والـ(لا) طبيعي طبيعياً، وكأن الـ(لا) التي بينهما فائض إغوائي لا يمس جوهرهما في شيء.

درس ثامن (تربية وطنية): 57 أيلول 2000

لو قالت العرب، «الكذب أخو المجاز»، بدل قولها «المجاز أخو الكذب»، لاعتدلت صورة الوضع الحقيقي للمذابح الجارية بحق الفلسطينيين في وعي المؤسسة الثقافية الإسرائيلية. ولما أوصلت تحذيرات إسرئيل هاوبكنز من الهولوكوست الجديدة نخبة اليمين الإسرائيلي إلى هستيريا الكناية الفاضحة بالترويج لكون عرفات هو عضو الكنيست الحادي والعشرون بعد المائة! لقد اكتملت تراجيديا مؤسسة الثقافة الإسرائيلية المعاصرة بنقيضين صهيونيين كلاسيكيين: اليسار النرجسي الملحد الذي لا مهمة له إلا الحفاظ على يساريَّته ناراً مجوسيةً في أحطِّ انحداراته السياسية على الإطلاق. واليمين الهجين، إلحاداً ولاهوتيةً، الذي فكك له مايكل أوروسنن «شفرة التوراة» ليرى في «الدولة اليهودية» كياناً خديجاً سيودي به إعلان الدولة الفلسطينية إلى الهلاك. وهنا، يدرك صغار الشهداء من الأطفال الفلسطينيين ضرورة الاحتفال الأخير (الثاني عشر) بذكرى الاستقلال الفلسطيني من خارج أرض الوطن، إذ لا بد من بدء جديد في العد لتجنُّب ما يحيط الاحتفال (الثالث عشر) من شؤم كلاسيكي مفترض. إنهم يؤثرون إقامة دولتهم على أساس يقين لا يدَّثر بالفكر الألفي والوعي الحفري، بمقدار ما يستند إلى حق إنساني في الوجود الذي لا يسقطه التقادم، وإلى منطق التضاد مع حبكة الآخر لا التماثل معها، حيث تتماثل

الأحلام الفلسطينية بالدولة، لكن تناظرياً، مع الكوابيس الإسرائيلية بما كان من دولة لا يرى فيها عاموس عوز دولةً ولا شعباً ولا مجتمعاً بمقدار ما هي كومة من التبريرات.. ينتهي الحلمً الصهيوني بإقامة دولة الآلة، ليبدأ الحلم الفلسطيني بإقامة دولة الإنسان.

---

* شاعر فلسطيني يقيم في يوتا – الولايات المتحدة الامريكية.

بيــاض في المحبــرة

عاطف أبو سيف*

من يحب سجنه؟ أنا أحب غزة، أحب الغراب الذي لا يفوته الوقوف على عامود النور مغرداً بالكارثة التي أتوقعها كلما عزفت الشمس أغنية النهار على شباكي. وأحب الشارع المكتظ بصورة ظلي الذي أرسلته قبل أسابيع في رحلة بعيدة. كلما التقينا بعدها كان محملاً بهموم الجسد، يتعبد في ذاكرتي المترهلة في طريق مسافر. السفر البعيد الذي يعيدني إلى فضاءات زنزانتي الضيقة من بحر وسماء وتراب، أغوص فيها فلا أطير ولا أبحر ولا أراني إلا في قبر قريب من قعر الأرض. وأحب أغنيتي الحزينة التي تسمعنيها جدتي وهي ترحل على نعشها من الشارع الضيق إلى رحاب القبور. لحظتها أعترف بضيق العالم، فأعود ألتصق بزنزانتي بعد أن تخونني اللغة. أتقرفص على الطاولة البيضاء التي أجعل منها عالماً أستطيع خلاله فهم حالة السكون التي تعتريني وأنا أفسر وجودي بين أجساد لا تجيد إلا فن الانهماك في ترحال لا ينتهي. الترحال الذي وعدت به العرافة أبي غداة زيارته لمنزلها قرب الموجة النائية، سائلاً عن ألم أصاب ساقه اليمنى. اكفهر وجهها بالغيب وقالت «إنه ترحال لا ينتهي..» بعد سنين اضطر أبي والعرافةَ وكل أهل المدينة للخروج في ترحال لم ينته. وألعن السيدة التي تحمل طيفي على كفها وتقبلني مع طلوع الليلك. تفتح شباكها كل صباح ومتى شَاءت وكيف أرادت وبالطريقة التي ترى ..

– صباح الحب يا عمري.

أعود إلى أغنية جدتي فأراني طفلاً جاءهم بعد «شوق وعطش» كما تقول أمي. نذرت للرحمن ثلاثة أيام صوماً إن هو رزقها بولد «يغيظ العدا» والعدا هم الجيرة والصحاب الذين أنعم الله عليهم بالذرية وحرم أمي منها سنين. هكذا رحلت جدتي كما ترحل الأشياء الجميلة دون أن تترك على شفاهنا غير أحرف نتهجاها أبجدية لا تكتمل. الدمع كفيل أن يقطع لذة التواصل. أبكي طويلاً حكاياتي العتيقة وأنا

أكتشف زيف الذاكرة وضعفها عندما تستعيد أحلاماً لم يكتب لها النور إلا بعد أن أضع رأسي على المخدة الخضراء التي صنعتها لي أمي لتصبح كل أيامي خضراء أيضاً... في غابتي الخضراء أضيع في عالم أسود. عالم آخر يلفني. الألوان مساحات للنسيان، والبياض فراغ للإدراك... إي إدراك هذا!
لا شيء يشبه هذا العالم. السواد سحب تمر ولا تنتهي. وجوه غريبة. الزمن براح لا يبدأ ولا ينتهي. وجسدي! لا جسد لي. أفق من النشوة يسكن سقف الروح. وتهاويم نبضات كأنها اختلاجات الفاكهة في منقار طير صغير. رأيت الطير وأنا أراقب العش في حضن شجرة البرتقال قبل أن أبدأ حلول الفراغ في التفاصيل. ثلاث خبطات هزت ورق الشجرة. ذهبت الأشياء من أمامي. أدرك ما لا أعرف، وأدرك ما لا أميز. أرى أشياء كثيرة حولي ولا أعرف علاقتي بها.
صور كثيرة تأتي، أحس بها تعتمل في شيء له صلة بي. كأنه جزء مني. الجزء الذي أحسه ولا أدركه. يشبه ذلك الجزء الغائب مني. خطواتي غير محددة الشكل أو الإيقاع في هذا العالم الأسود. أمشي (أو لعلي أسبح. ما أشبه السواد بالبحر / بالحبر) ولا أدرك وقعي على الأشياء . صدى الصمت الذي يطبق حولي يحيل الرحلة التي أخوضها غيوماً من ضباب. كأن العالم أرجوحتي. كل شيء يكتسب خصوصية ما بالقدر الذي يبدو فيه غريباً. حركتي! الحركة من سكون وهي أصلها. أبدو نمطاً لا يميزني شيء عما حولي. الشيء الذي كان يمكن له أن يكون ميزتي هو الصخب الذي أنشده الآن لولا أن العالم الأسود لا يخلو من إرهاصات الضوضاء وهو يعيد تشكيل نفسه فلا أقبض عليه ولا أمسك بتلابيبه.
التميز شيء لا أنشده لكن صمتي حيال الأشياء يجعل مني صورة جميلة عن التفاصيل حولي. أنا جزء منها وهي مرآة لصورتي. كنت أقول أنا مرآة لها. القضية مجرد وجهة نظر.
الآن لا أدرك، أدرك شعاعاً أبيض يخترق عالمي.. كيف أمكن لي تحديده. العالم الأسود حولي يتداعى. ضربات تتسارع مع الوميض الذي يحدثه غزو الشعاع الأبيض، كأنه شارع مرصوف بالدهشة. فيه أشياء كثيرة. أذكر الآن ضياع تفاصيلي. البياض بؤرة تكبر. فيها أجزاء لا أعرفها. البؤرة تصير مثل علبة الكبريت..صندوقاً تأتي منه صورٌ تتداخل محتوياتها. عالم آخر لا يشبه عالمي. أذكر أو لعلي أحاول أن أتذكر أنني رأيته –الذاكرة لا تسعفني– التماهي الذي أحاول نسجه يوقعني في ورطة المحاولة. حاولت مرة.. من العبث بحثي عن الشيء الذي حاولت فعله كأن لي ذاكرة. الذاكرة شيء يتفتح مثل زهرة نائمة في البياض. متاهات عديدة.
بألوان تثبت اختلافها عن السواد الذي يلفني. في المتاهة العاشرة (هذا يثبت طبيعة الذاكرة الرقمية) رأيت بؤرة أخرى للصمت. فيها ما يدهش من القول. والقول ليس إلا أصوات غريبة. شبه حيوان أليف بثلاثين (هاأنذا أتيقن من العدد) قرناً يعبر تاركاً شيئاً يشبهه. الشيء الذي اكتشف وجوده حولي. علاقات جديدة أقيمها مع الأشياء. أساسها الاكتشافات المغيرة التي تنشأ. السمة الوحيدة التي أجزم بوجودها بين كل ذلك هو الضياع الذي أسكنه ويسكنني .الضياع الذي قذف بي العالم في أتونه. حريق كبير من الغياب والحضور لأشياء متقاربة ومتفاوتة في طبيعتها. أرى نفسي شيئاً (والشيء مدرك بالوجود لا بالحس) يحاول أن يكون. الدوار يلفني. يهتك وحدة الأشياء حولي. هارمونيا الوجود تختل. اهتزازات في مدارات الذاكرة التي ظننتها متاهات (هذا لا ينفي أن الاهتزاز صورة هادئة عن المتاهة) .

ثمة مساحات تختفي وذبذبات تصير وشوشة جهاز تموت فيه الكهرباء. الشعاع يضج بالحركة. تجري فيه أشياء سائلة. السائل يصير كتلة. ينتفض عالمي. يتراجع السواد. تتقهقر العتمة. الذاكرة تعيد تحوير مكوناتها. ضمن هذا الإدراك أبرر التغير المستمر في فهمي للأشياء. والمدرك غير المحسوس. المساحات الجديدة تبدأ بالفراغ. مثل الشمس عند الأصيل. وخزة في أعلى رأسي. أوراق الشجرة انتفضت. عش العصافير تهدم. سقطت.. آآآآآخ .

اهتز العالم حولي. العالم؟

أصوات غريبة وأولها صرختي وأنا أخرج من برزخ إلى برزخ آخر، وآخرها أنتي الطويلة التي ينتهي بها الكون. افتح فمي. لساني ورقة شجرة رمت بها ريح تأتي من خلف السياج.. دوائر قرمزية وأشكال لا أعيها.. بالتحديد أبدأ الآن في التكهن بماهيتها. ذلك الشيء يسكنني.. يثير نسيج تفاصيلي، يندغم فيَّ.. هذا ظلي .. شاب بطول وتد السياج فيه أشياء كثيرة لا أجدها إلا في عالمي.. قد يندثر الشكل.. يتلاشى.. تذهب الأشياء..

وغزة بحر طويل رسمه طفل في دفتر الرسم. كان المدرس شغوفاً بالألوان عديمة الحيادية. نهرني فبكيت. سكبت اللون الأزرق على الورقة. بعض خربشات لبيوت أسمنتية طويلة، وكانت المدينة. خرجنا بعدها في مسيرة كبيرة طافت المخيم . حاصرها الجند في الطريق أمام ماتور الماء. مات يومها حاتم. بكت جارتنا طويلاً بعدها إلى لحظتنا تلك. حين ترانا، نحن رفاقه نلهو ونقلق المخيم بصخبنا، تطوي ثوبها المطرز بالدمع وتحدث طيفاً لا يستحيل جسداً إلا في الذاكرة الخصبة، حين يركض غزالاً برياً بين زهور الأيام الخوالي. أمر طويلاً من أمام المكان الذي رحل فيه معظم شهداء المخيم في الانتفاضة الأولى.. الآن تتموضع الأشياء من جديد. اعتدنا أن نطلق على الساحة الممتدة قرب بركة أبو راشد وماتور الماء التابع لها «ساحة السافية» لأنها لم تكن أكثر من «سواف» من الرمال الصفراء.. مع سبع سنين من الانتفاضة تحولت الرمال الصفراء إلى صحراء سوداء من بقايا الإطارات المشتعلة. في البداية وبسذاجة لا تخلو من رومانسية الحالم، غرسنا شجرة صغيرة في كل مكان يسقط فيه شهيد، وأحطناها بأسلاك تعزلها عن المكان. كأننا اكتشفنا بعد فترة عبث ذلك إذ تحول المكان إلى غابة صغيرة من الأشجار التي أخذ الجند يدمرونها كلما استطاعوا دفعنا للتراجع للخلف. الآن لا يوجد هناك ساحة أو ما يحزنون. ما زلنا إلى لحظتنا نسمي المكان ساحة الشهداء وهي ليست بالساحة. أحدهم ابتنى بيتاً قرب ماتور الماء والآخرون أخذوا بتمديد مساحة بيوتهم لتطوق الفراغ الذي شكل يوماً الساحة. متنزه جميل أقيم في القسم الجنوبي ورصف شارع شق صدر «السافية» يوصلها بأطراف المخيم الشرقية والغربية. في أيام المتنزه الأولى أخذ الشبان والفتيات بالتنزه والخروج هناك مساءً. أصبح في المخيم مكان يذهب إليه الناس. كان المنظر بهياً حين يتحول مكان المواجهات والموت إلى مكان للبسمة والحب ودقات القلوب، غير أن الأمر لم يرق للكثيرين فأغلق المكان، وأضحت «السافية» وشماً في جسد لم يكن. عالمي الجديد من ضياع، من حكايات قديمة. كل الدنيا لا تعرف حجم المأساة التي يحياها من فقد وعيه بالعالم. الفرق بين من يفقد الوعي وبين من يدرك أنه فاقد لوعيه فرق بين جاهل يتخبط وعارف يتبصر طريقه.

انسحب من حكايتي تلك. ألملم الكلمات المبعثرة في دفتر التاريخ قبل أن أمضي ورفاقي إلى طرقات الليل

وازقته، ونحن نقرع أبواب النار. ذهب بعضهم في شارع طويل كان آخره جمرة كبيرة، أفقت لما حرقت وجهي. لم أعد قادراً على إعادة صياغة الماضي فيبدو لحظات لم تكن. علاقتي بالأشياء علاقة طفل بخربشاته الأولى. المكان الذي أتتني منه الحياة وأنا أدفع نفسي وسط تأوهات أمي وهي تستلقي بمركز وكالة الغوث، والداية تبشر جدتي بالولد الذي جاء بعد طول عناء. أبدأ من نفسي، فأعترف أنني شيء لم يكن أو قد تتورم ذاتي فأشعر بضخامة جسدي وكبره في عالم كبير كبير.
كيف أبدو شيئاً وأنا نقطة في بحر، هباءة في صحراء. وأحب نسياني الذي يسعفني من مأساة الحسرة، فلا أنزف ليلكاً ولا أحتمل شوك الأرض. أتنكر لذاكرة لا تقيني رمد القلب، ولا تمنحني برهة لتأمل حاضري. التأمل لعبة من يفهم قيمة الوقت. تقبرني في ترف الماضي مثل جارنا الذي لا يعرف شيئاً عن ماضيه غير اللحظة التي قذف خلالها البحر بأجسادهم من يافا إلى غزة. هكذا كان/صار يحب شاطئ ملجئه لأنه يفضي إلى يافته. أما أنا فأحب نسياني لأن به شيئاً من ذاكرتي. فيه شيء من أحداث أكاد أنساها ولا أفعل.. العالم الذي أضيع فيه من صنع يدي. عالم لا أعرف كيف تورطت فيه. عالم تسكنه الذكريات والكوابيس. هو منها جزء من كل.
في ذلك اليوم تركت ظلي هناك في الطريق. أبرمت معه اتفاقاً شريفاً. بموجبه نتنازل عن امتياز المطابقة. هكذا أصبحت بلا ظل، وأصبح ظلي بلا جسد. الناس كعادتهم لا يدركون الفرق بين الأشياء حين تتغير. من ينظر إلى منظر السماء حيت تختفي الشمس خلف كومة من الغيوم. فقط ما يهم الناس «هل ستمطر الدنيا اليوم أم لا» أما شكل السماء ووجهها والرسومات الجميلة في صدرها، فهذه أشياء لا ندركها.
هكذا لم ينتبه للفرق إلا ذاكرتي. المصيبة مصيبتها هي وحدها. ربما ليس تماماً. أن تكون ذاكرتي وأنا بلا ظل في وضعي الراهن ذاكرة لشخص بظل (الشخص الذي كنته). هذه مصيبة حقاً. الأمر مرهق لها ولآلاتها وتروسها التي تعمل لاسترجاع الأحداث.لم يكن ثمة شيء قادر على استرداد توازني غير هذا الاتفاق الشريف. (وقولي أنه شريف لا يعني أكثر من أن مبدأ الإلزام فيه هو الأخلاق والحس العام، إذ لا وجود لسلطة تفرض من باب علاقة القوي بالضعيف أو من باب وجود قوة ثالثة يرهبها الطرفان.) ..
على الشاطئ صورة لمخيم آخر (مخيم الشاطئ) يبعد قليلاً ويبعد كثيراً عن مخيمنا. المكان صورة أخرى. تماهي الأشياء أكبر من مقدرتي على الإدراك. في الشارع أغنية موج تأتي بأسماك القاع التي هربت من شباك جارنا في يافا. هكذا تركني ظلي وهكذا تركته. مرات عدة أتحسر إذ أدرك فقداني لجزء مني. قد أشعر بالهجر كما تترك فتاة قلبها أو كما يترك قلب جسداً. آخر مرة رأيته كان الوقت مساءً والشمس كرة لهب باهتة في طرف السماء. ودّعته وداع الجزء للجزء، والكل للكل. تركته على الرصيف. كانت الأشجار غابة من وهم. حبات البرتقال لم تزل في طور الرحم، وأزهار الحنون دموع عذراء على ورق العشب، وأنا..!!
– تغتصب اللحظات من فم العرافة..
العرافة التي صعقت طفولة أبي بالترحال. واللحظات التي أفشل في لملمة أطرافها كالثوب الممزق بلا أزرار أيضاً. أسير في المخيم كأن الناس قطرات مطر جفت على حواف الطرقات.. البيوت لا تعرف كنه نفسها. فجأة أصبحت مستقراً للآلاف التي تركت قراها ومدنها بعد فضاء الحرب والدمار..

لما كنت طفلاً سألت جدتي:
– لماذا تركتوا؟
نامت على تنهيدة..
– مين بترك روحه..
ثم صمتت مثل البيوت الغافية في الظلام الآن وأنا أسترجع عشرين عاماً، ثم قالت مستطردة على تنهيدتها:
– الزمن .. سقا الله الأيام اللي كانت.
لم ينتبه أحد أنني بلا ظل، كما لم يدرك الآخرون الظل الذي يغزو وجودهم بلا جسد. يحدث أن نتقابل في شارع ما. نتبادل التحية. قد نقف بعض الوقت نتبادل الأخبار عن حياتنا الخاصة. أنا لا أملك إلا الحديث عن أشياء تخصني أما هو!
قصصه كثيرة وحكاياته طويلة. يحدثني عن كل شيء بدءاً بحاله وانتهاءً بحالي مروراً بالآخرين وبالمكان والأشياء والعالم. في أحيان كثيرة أصغي إليه بشغف وانبهار، وفي أحيان أكثر أعرب عن قرفي من ثرثرته ولغطه وقد أنبهه إلى الزبد الذي يغطي المسافة بين شفتيه فيدرك لحظتها أنني أشير إليه أن يصمت. عند الفراق نؤكد التزامنا بالاتفاق الشريف.
على مدار الأيام التي فصلتنا عن بعضنا بدأت أدرك أهمية مثل هذه اللقاءات السريعة التي أقابل خلالها ظلي حيث اكتشف قيمة الحكايات والقصص التي يرويها لي. أرى منها العالم كما أرى نفسي.
غاب أسبوعين. خرجت للشارع أبحث عنه. من يبحث عن وهم. سألت الحانوتي. نفض الغبار عن قطع الصابون النابلسي على الرف الجانبي. ناولني واحدة ..
– هدي لوجه الله تغسل فيها، باين إلك شهر مصابتش المية جسمك.
كان اكتشافاً بالنسبة لي أيضاً.
كتب لي يوماً..
من العبث في مثل هذه الحالة من الهذيان قول ما كتب لي. في البداية عليّ الاعتراف بوقع المفاجأة حين ناداني الحانوتي معلناً وصول رسالة لي.
– من مَن ؟
إجاَبته لم تكن أكبر من عدم معرفته. لما سألته عمن سلمه الرسالة قال أيضاً إنه لا يعرف.
– كيف إذاً جاءتك.. مشياً ... لها قدمان!
ببساطة اكتشف الحانوتي وجودها على طاولة الشراء. أيضاً هو لا يعرف وقت وصولها تحديداً. كان الأمل الوحيد لي في معرفة مصدر الرسالة في النظر إلى طابع البريد.
ربما جاءت من مكان عبر منه أحد أصدقائي أو ربما أحد أعمامي، ليبدأ أبي لعبته التعيسة في البحث عن مستقر أخيه الجديد.طابع البريد كان محلياً. صورة الجنيه الفلسطيني قبل النكبة، غير أن الرسالة لم يتم ختمها من مكتب بريد. ببساطة وباختصار أحدهم وضعها باليد عند الحانوتي. هو لا يعرفه. أنا أعرف. لم تكن مفاجأة. السطر الأول فضح الأمر. ظلي عبَّر عن اشتياقه لملاقاتي غير أن الأحداث الأخيرة

منعته من الوصول إليّ. قال إنه وبعد اندلاع المواجهات قرر المشاركة. كما قال لي ذات مرة: المشاركة فعل إرادي لا نتخذه بمحض إرادتنا.
ركب السيارة الذاهبة إلى الجنوب. الطريق من غزة إلى خانيونس ورفح خط أسود محاط بالأشجار.. لأنه لا يعرف الجغرافيا كثيراً بوصفه جديداً على حركة الناس فقد اعتقد أن خانيونس قريبة من نقطة الاشتباك التي أغرته لكثرة ما سمع التلفاز والراديو يبثان منها. كان يقصد مفترق الشهداء أو ما يسمونه «نتساريم». نزل في ساحة قلعة برقوق في خانيونس. المدينة مشلولة الحركة. مئذنة الجامع تفتق صدر السماء الغائمة. والقلعة بقايا تاريخ ينظر له الناس بالحسرة. الباعة ينتظرون زبائن لا يملون الحركة جيئة وذهاباً دون الشراء. فهم ظلي من بائع البراد بالليمون أن مفرق الشهداء شمالاً في الطريق إلى غزة. أخذ السيارة. (روى حكايات عن الناس الذين اكتشفوا وجوده فجأة كيف لا أدري أو لعل رسالته لم تقل) نزل عند المفرق. أغبطه المنظر. في تعريفه للمكان كعادته يقول ..مقاطع من اكتشاف الجغرافيا الاكتشاف متأخر، لذلك يبدو مفاجئاً. غزة لا تزيد عن 365 ألف دونم. قرابة 56000 منها مصادر، عليه 18 مستوطنة يقطنها ما لايزيد عن 6200 ساكن. وهي تحتل الموقع الأكثر أهمية في المنطقة سواء بموقعها على شاطئ البحر مباشرة أو في الأراضي الخضراء. وغزة كلها خضراء. (..) فيما تشغل 33.15٪ من مساحة المكان لا يقارب عدد سكانها أكثر من 7.0 ٪ من إجمالي أهل المكان. وشتان بين من سكن من قبل حلول التاريخ في ذاكرة الناس ومن سكن قبل ساعات.

طويت الرسالة.
سهرت ليلة كاملة أقلب ذاكرتي، أحاول البحث عن شيء لا أعرفه لكني أحسه.. أعيد النظر في حساباتي. من يبحث عن / في داخله.. السر الكبير الذي لا أعرف أصله.
أتقنفذ في قوقعة الروح، أبحث في تيه العتمة عن نقطة بياض تغرق عالمي. أريد الهرب من الطوفان، من الصمت، من التيه، ومن أشياء كثيرة. من نفسي..
– نفسك أكبر من كلمات تثرثر بها
– أنا الخاسر في صفقة رابحة
خلاصة الرسالة الثانية التي بعث بها ظلي في اليوم التالي مباشرة تقول إنه لم يستطع مقابلتي لأن مفترق الشهداء الواقع مباشرة قرب «وادي غزة» مغلق أمام حركة المواصلات وتنقلات الناس فلا يستطيع الحركة من الجنوب باتجاه المدينة: غزة.
لذلك فهو محاصر في الجنوب. غزة أصبحت أيضاً شمالاً وجنوباً. قال إنه وبعد حلول الظلام وانسحاب الشباب والفتيات من ساحة المفترق يتجه إلى مخيم النصيرات القريب من المكان، يبيت في شوارعه. كتب يقول

«إن الأماكن لا تختلف كثيراً. المخيم مخيم»

أما فيما عنونه كالعادة في الجغرافيا فجاء في المتن.

مقاطع من اكتشاف الجغرافيا

كنت أعرف أن هناك مخيمات غير جباليا والشاطئ ـ وهما حدود معرفتي خلال اصطحابي لك زهاء الثلاثة عقود . لم أغامر بالسؤال كما لم يكن باستطاعتي مفارقتك. أترى ميزة الحرية التي انتزعتها بتركي لك أو بتركك لي. الآن أعرف التفاصيل. هناك ثمانية مخيمات من رفح حتى جباليا. تقع المخيمات على قرابة 5500 دونماً مجتمعة..

(..) أما مفرق الشهداء ـ أعرف أن لعمك الكبير أرضاً تمت مصادرتها هناك. لا أعرف كم دونماً تقريباً. الأرقام مهمة في الجغرافيا، وهذا ليس فشلاً، لكنك لم تزودني مرة بالمعلومة.. (..) ما يسمونه نتساريم أقيمت عام 1972 على ما تمت مصادرته من أراضي الناس. في البداية سكنها قرابة ستون مستوطناً بلغ عددهم الآن ثلاثمائة على مساحة 2200 دونماً. وإذا كان لي بولوج التحليل (وهذا مشروع طالما خضت غمار المحاولة) فسأقول إن هذه المستوطنة بسكانها الثلاثمائة تشغل نصف مساحة مكان يقطنه نصف مليون نسمة. لا يبدو هذا اكتشافاً، لكنه مفارقة.

لا أخفي أن همي صار الذهاب إلى هناك للبحث عنه. في لحظة ما ظننت أنه قد يستهويه أحدهم فيلازمه وينساني طالما أن هذا لم يكن شرطاً في الاتفاق ولا يوجد ما يلزمه أخلاقياً بعدم فعل ذلك إلا الولاء لذاكرته. ومن يخلص لذاكرة تخون نفسها. للأمر علاقة بحب التملك.

أعود وأقول «ليس تماماً» هناك ما يقال عن علاقة تعود إلى لحظة ولادتي حين خرج هو من ظل أمي وضوء مصباح الكايروسين يرقص في غرفة الولادة في عيادة وكالة الغوث. علاقة بعمر الشاب الذي كنته وأكونه الآن.

لماذا لا أعترف مباشرة بفشلي في صياغة حكايتي مع ظلي. أنا لا أمسك عليه / عليها حتى اللحظة. من أين أبدأ؟ كل رسالة أتسلمها منه (لم تزد عن سبع رسائل. سبعة أيام) اكتشف ذهولي أمام التفاصيل التي يرسل لي بها ظلي. أصبحت أخجل من نفسي وهو يعري زيف الجغرافيا. يتحدث عن أماكن وأرقام وبيانات. لم أسأله (وإن أردت سأفشل ببساطة لأنني لم أخاطبه حتى اللحظة. الحاجز يمنع التواصل حتى بين المرء وجسده. الحواجز كثيرة والعبور شحيح) كنت أقول لم أسأله من أين عثر على هذه المعلومات إذا كنا نشترك بذاكرة واحدة، ولم أعرف أنا الكثير من هذه التفاصيل.

وهنا يعاودني شكي فيه. ربما قابل جسداً أفضل له مني. مرة أرسل عن حبه للمكان، يقول.

مقاطع عن حب الجغرافيا

المفترق جميل. والجمال وجهة نظر. أشجار البرتقال على الصفين. الشارع الذي يلتف حول خاصرة البيارة الجانبية ليخرج من زحمة الطريق إلى الشارع الشرقي كما يسميه سكان المكان. ليست بالبعيدة كلية التربية. أنهكها القصف. الطلاب أصروا على الدراسة فنصبوا الخيام فوق ركام الهدم الذي تركه القصف، وبدأوا محاضراتهم والجند يقنصون الحياة من أجساد البشر. أحب الوقوف هناك أشارك الشباب والفتيات ما يقومون به.. أحمل الحجارة مثلاً، وقد أتقدم نحو الجندي.. ينادي على الشباب.. الجندي يتمترس خلف ثكنة من الأسمنت المسلح يزيد سمكها عن متر، لا نرى منه إلا فوهة البندقية

فنرمي عليها.. أحدهم تسلق الثكنة. حرق العلم علق العلم. أصابته الفوهة في ساقه. حزنت عندما رأيت المرأة العجوز تسقط قرب جذع شجرة البرتقال وهي تزغرد. الحزن شيء لا يمكن وصفه بالضعف. الضعفاء فقط الذين يندمون. الحزن حالة إنسانية. الأقوياء يحزنون أيضاً.
لا أحسده على سرعة تأقلمه مع العالم حوله، أحسد نفسي كيف تمالكت ولم أنهار وأنا أستعيد قصص الماضي. أعترف أنني أعرف المكان شبراً شبراً وشجرة شجرة. ليس تماماً شجرة شجرة، إذ أن الأشجار سرعان ما ترحل بفعل البلدوزر ليتغير شكل المكان. قالت لي صديقتي ونحن نخطو فوق جسر ويستمنستر Westminister في لندن وأنا أسألها عن ترحالها الكثير بين مدن العالم وهي الفلسطينية التي لا تعرف من فلسطين إلا حكايات أبيها عن صفد ..
– كل المدن إلا صفد.
– ويافا؟
– لك.
– وهي لك
قالت إن الأَماكن تسكن داخلنا وليست في العالم الخارجي. سألت ..
–ماذا تعني لك يافا. هي ما يسكن فيك عنها. عندما تراها تطابق ما يسكنك بما هو قائم، تأقلم الأخير مع الأول..
وقالت عن شغفها بالنظر إلى المكان كأنها تراه للمرة الأولى والأخيرة:
– نحن في ترحال، فقد لا أعود إليه. جدي لم يكن يعرف لحظة خروجه من صفد أنه سيقضي عمره خارجها. لو كان عرف لاستنشق الهواء فيها للأبد، مثل زفرة جارنا الحيفاوي.
وقصة الترحال مرة أخرى وأبي والعرافة وحكاياتي الكثيرة وثرثرتي حول ذلك. أما عن عمي الكبير صاحب الأرض التي ابتلعها السياج الوهمي الذي حول المكان إلى مستعمرة سكنية يقطنها ثلاثمائة من الخلق فذلك قصة أخرى من الترحال .. على أي مقاربة للقصة أن تبدأ مني .. أنا الطفل الذي شهد البيارة ودخول الجنود. أصبت سقطت في عتمة أخرى. العتمة حالات من عدم الانتساب إلا للنفس. أصابتني الرصاصة وأنا أرافق عمي في رحلة الوداع الأخيرة. كم وداع طاف في عمره... كوابيس الليل تحيل الفجر طائراً خرافياً يعشش على شجرة اللوز في آخر البيارة، والجند يلحقون بي والدم ينز من جبهتي قطرات شتاء غريب. سرت بين صفوف الأشجار.. برتقالة رمت بها الأغصان في واد سحيق.. سريان الريح بين الأشجار صرخات ذئب يختبئ في الطرف الآخر للبيارة.. وقعت في الكمين... حاصرني الجند من أمام ومن خلف.
استدرت يمنة للفرار فأطبقت عليّ العتمة.. غبت في دهاليز عالم آخر لا يشبهه إلا لحظة غيابي في متن الحكاية التي أتلوها على نفسي نقوشاً كثيرة عن لحظة اقتحام الجند للبيارة حين كنت .. بعد سني الهجرة عن يافا سحب عمي الكبير (لتمييزه عن باقي أعمامي الخمسة) ما أودعه في البنك العربي من مال وقرر الرحيل عن المخيم. في المشادة التي لم أشهدها إلا في اختلاجات حكاية أبي عن تلك اللحظة، قال عمي أشياء كثيرة عن يافا وعن المخيم. انحنى يغترف من رمل فناء الدار وصاح في وجه محدثيه

(أبي كان واحداً من خمسة):
– هذا رمل ورمل يافا رمل.. شو جاب لجاب.
فأرضى عمي بعدها بين البحر والبيارات المشارفة على وادي غزة. هناك أخذ يستقبل النسيم القادم من شاطئ بعيد، ويحدق في مركب لم يأت بعد. أبي الذي لم يعرف باباً يخرجه من المخيم إلا إلى يافا ظل دون اخوته الخمسة في حارة حملت اسَم المدينة في مخيم حمل أسماء القرى والمدن التي جاء منها أهلها.
هذا لم يمنعنا من الخروج في الصيف بعد أن نستريح من هم المدرسة، لأسابيع نشارك عمي وأولاده النظر
في لازورد البحر وبرتقال الأرض. لم تعنِ يافا لعمي أكثر من هذين المتقابلين، البحر والبيارة. أما نحن وفيما نركض بين صفوف الأشجار لم نملكَ إلا مماهة حلم عمي مع لحظتنا. عليّ الإقرار أنه كان بالنسبة لنا لاحقاً صورة الجد الذي ابتلعه البحر في طوفان الرحيل.
كان منظر الأرض يثير فيَّ شبق الحفر في الطين. عادة ورثتها عن أبي. أحفر أنفاقاً لا تتسع لأكثر من ذراعي.. ولما أضعها أكتشف كيف احتوي العالم بين ذراعين قمحاوين. كانت الفكرة تروقني فأفرط فيها حتى ينهرني أبي نفسه.. أخرج في الصباح مستعداً لهمسات أريج الزهر الوافد من كل مكان إلا صوب البحر الذي سيغلب عليه خفقان النوارس.. الطريق مسلك طيني بين صفين من البرتقال، وأنا فراشة أخرى في مشهد يرسمه سيزان.
مع الوقت أخذت أدرك ثقل الأسلاك التي بدأت تحيط بالأرض المجاورة. في البداية بدت بعيدة عن بيارة عمي وبيته.. من نافذة البيت الكبير كنت أرى الكرافانات والبيوت المغطاة بالقرميد الأحمر.. ابن عمي الصغير فزع ذات ليلة لحظة أدرك وهو يرتفق النافذة أن «دماً يغرق سطح البيت هناك» دون أن يعرف أن للسماء شكلاً آخر خلف الأسلاك الزاحفة صوب البيارة..
في الصيف الجديد كانت الأسلاك أكثر قرباً من حدود المكان. بدا عمي قلقاً وهو يقلب جمرات الكانون ورائحة السمك تختلج في زبد اللسان. تمتم بأشياء كثيرة لأبي وهنا يخطوان قرب الأضواء القادمة من وراء السياج.لم ينم عمي ليلتها. كان يدرك أن الأسلاك الشائكة قادمة لا محالة. في الهزيع الأخير من الليل جاء البلدوزر. خرجنا.. لم نمنح من الوقت إلا نصف ساعة. بكيت على حبات البرتقال وهي تسقط دموع عذراء تنتظر عشيقاً غدر به الزمن. لم يبك يومها عمي. لما افتقدناه وجدناه يسبح بين موجة البحر الهاربة والموجة الذاهبة.
في الصباح كان يحمل بعض أمتعته يسبقه ظله في أزقة المخيم. لما دفع الباب بكى كالطفل اليتيم. بعد أسبوع أخذ أولاده وزوجته وخرج.
بعدما تلقى أبي رسالته الأولى فض طوية الخريطة الكبيرة للعالم التي يحتفظ بها ليتعرف على أماكن البلدان التي يستقر فيها اخوته وأبناء عمه. أخذ يبحث عن مكان في العالم اسمه موزمبيق.
– أوف في آخر الدنيا .. قلب أفريقيا...
وصمت. بعدما كبرت عرفت أن بيارة عمي المصادرة أصبحت بيوتاً لآخرين اسمها «نتساريم» تنار بثلاثة أضعاف ما تنار به مدينة يشقها شارع عمر المختار من الشرق إلى الغرب. واظب أبي على مكاتبة عمي

يخبره بكل شيء عن العائلة وعن البلد، وفي آخر كل رسالة يبدأ فقرة جديدة مفتتحها دوماً « أما عن البيارة....» وحين يضع أبي طابع البريد على مغلف رسالته لا يعرف تحديداً إذا ما كانت ستصل عمي إلى عنوانه أم أنه سيكون قد رحل منه إلى مكان جديد قبل وصولها.
مالي أنا وهذه الحكايات القديمة. افتح جرحاً بمبضع من دمع.أحكي لروحي عن بقايا الأغاني التي تركت على تقاسيم عودي، مقامات لا أساس لها إلا الشجن. من أكثر مصاباً مني؟ لا يجدي الحزن كثيراً (وهنا اختلف مع ظلي) ولا تجدي الكلمات الجميلة، الشعارات التي أواسي بها نفسي. كل ما أستطيع فعله الصمت أو النزوح من مسامات الجسد إلى فحيح الريح في الخارج، أصبح قطرة شمع تتساقط من نافذة الشباك الليلكي فلا تخرج جارة الهوى ولا تسعفني كل «صباحات الخير» إن لم تأتِ.
– صباح الخير يا عمري.
تغيب الدنيا عني، أبقى في فراغ من حضور مسلوب. يقول ظلي في هامش رسالته الرابعة.

هامش لمتن لم يوجد
للغياب المفاجئ كنه الحضور الدائم، للأسئلة التي يخلقها والبريق الباهت الذي يتركه لوحةً تطلب دائماً قراءة تختلف عن سابقتها. المكان الذي بالطبع سيكون مسرح الاحداث سيكتسب خصوصية الصمت متشحاً بردة الغياب رغم حضوره التكويني، أما الوقت فللزمن دورة أخرى ترتبط أكثر من أي شيء بنبض الذاكرة ومنحنى الصعود والهبوط الذي يسير وفقه فعل التذكر. أما الذي غاب فلفعله سمة القصد والتدبير، حين يأتي الحضور الآخر من فهم مغاير للعلاقة مع الآخرين وحين لا يبقى من صمته إلا أسئلة دائمة الهيجان في عقول من شهدوا الرحيل. من يملك أن يسأل غائباً عن دافعه للموت (متغاضين بذلك إذا ما كان حقاً رغب فيه أو أرغم عليه). لو كان الأمر ذهنياً لسهلت الإجابة بكلمات فلسفية بحتة ولو كان سطحياً لن يقتضي الأمر أكثر من إجابة ساذجة. غير أننا أمام تميز يتطلب تميزاً في تحليله. من هذا الفهم يتسع الأمر ليشمل علاقات قد تربكنا في دهشتها غير أنها ستستحق مشروعيتها من خصوصية عالية».
لماذا لم يسعفني الصمت مثل الطفل الأخرس الذي عاش في الحارة بيننا دون أن نعرف الضوضاء التي تعيش في داخله حتى كان «الأحد الأسود» كان فضاء ساحة «السافية» يصخب بصراخه وبالأصوات الغريبة التي يخرجها وهو يندفع نحو الجند قرب ماتور الماء. خرج سكان المخيم في الفجر على صوته يجوب طرقات وأزقة الحارة، ينزف دماً حتى خر على طرف أحد الأزقة المؤدية إلى الساحة (شجرة جديدة في الغابة..) سقط ونجمة الثريا تغادر مدارها. أسهب الناس في الحديث عن الصباح غير العادي الذي
عاشه وهو يكتشف طعم الفلافل بخمس ساندوتشات التهمها وهو يشير نحو شيء لا يراه الآخرون. كان المخيم حكاية جديدة، صمت مسلوب الحضور.

صباح آخر
ترهقني الذاكرة، تحيلني آلة صماء تحترف تكرار التسجيلات القديمة، CD جديد بمحتويات قديمة. الطريق التي تعبر ذاكرتي فأراني طفلاً يقطف العمر من بستان أيامه، والمخيم فتاة صغيرة تنثر شعرها في شعاب الأرض، حكاياته بضع دمعات تسقط على خد ملتهب. أسير في الدرب الذي أعرف والذي لا أعرف.. أبي يمسك يدي يسحبني إلى المدرسة البعيدة قرب سكة الحديد.. ضحك ندماء أبي وأنا أبكي لأني انتظرت القطار الذي لم يأت طوال اليوم..
– سكة الحديد لا تعمل منذ النكبةَ..
نهرني أبي. سحبني في الطريق. برك الماء قطرات دمع كبيرة. شارع المدارس فصول في حكاية طويلة. دخلنا المدرسة. يومها أثبتت لأبي أن جهده لم يخب في تحفيظي طريقة العد من واحد إلى عشرة. سجلني.
في اليوم الأول حاصر الجند المدرسة. عدت أبكي. أعطاني أبي تفاحة وهو يحدق في خريطة كبيرة للعالم ينظر إلى موقع السلفادور حيث استقر الترحال بأخيه الكبير.التفاصيل الكثيرة أحيك منها ثوباً ألف به روحي الذاهبة في التيه. في العتمة. في المدرسة أشجار الكينية غيوم خضراء. العصافير فراشات كبيرة والريح عطر زهور البرتقال. مدرس التاريخ يجمعنا في عب الأشجار الكبيرة. حكى شيئاً عن المعارك وآخر عن الخيبات واستقر به الحديث عن ثورة البراق .. جاء الهتاف من خلف سور المدرسة. اندفع طلاب المدارس الأخرى. انسحب المدرس إلى غرفة قريبة. كتب شيئاً على السبورة، حدث نفسه بأشياء كثيرة. خرجنا في المسيرة الكبيرة. اجتزنا سوق المخيم باتجاه مركز الجيش. حاصرنا الجند ثم حاصرونا.. تراجعنا نحو ماتور الماء في ساحة «السافية» سقط حاتم يومها ونحن نتراجع صوب البيارات والكروم المتاخمة للمخيم. في أول عيد فطر بعد ذلك كنا نتجمع أولاد الفصل لزيارة عائلة أستاذ التاريخ الذي جاء الجند لاعتقاله بعد خمسة أسابيع من حصة التاريخ تلك.. تذهب الأشياء في أتون الحكاية ذهاب الظل في الجسد (كان لظلي جسد وكان لجسدي ظل). أي مقاربة أو محاولة لوصفها لن تكون إلا درباً من تشكيل الوعي المعرفي بالجغرافيا مثل اكتشافات ظلي في رسائله. الدنيا مرة أخرى مقلوبة. الرجل المدجج بالكراهية يقول إن مجموعة من المشاغبين يحاصرونه في نتساريم. والسيدة العجوز تحدث جارتها المثقلة بثلاث دمعات متحجرة في قوقعة العين تقول عن المذيع الذي يقول «نط ساريم» والشاب العابر في تفاصيل الحكاية يقول متفكهاً: إن للأمر علاقة بأحد ما يريد أن ينط من مكان ما. الجارة ذات الثلاث دمعات تهاتف الـ FM102 تقول على الشباب ترك «ساريم» ينط ليهجر المكان. في تحليلها للمذيع متجهم الصوت
تقول إن «ساريم» صورة أخرى للرجل المدجج بالكراهية وإنه مكره على النط من المكان ليغادر. إلى أين..
– جهنم .
ثم تمتم «والعياذ بالله». عندها يقول لها الصوت إن الليل زائل ثم يأتي صوت مارسيل يحن إلى خبز

أمه وقهوة أمه. دمعة كبيرة تلهب الزقاق. التنهيدة التي تأتي بالذكريات وأبو درويش جارنا يردد أغاني البحارة والميناء القديم. يجتمع الحزن من نواحي الذكرى. في الطرقات البعيدة للأغاني المسافرة في صلب الروح. الراديو محطات كثيرة والمؤشر ثابت. ينتهي مارسيل من الحنين وتبقى الروح جائعة.
المذيعة
الرقيقة لا تعرف إلا لغة الخسائر والإصابات والدمار.. والمراسل أجش الصوت (مفارقة التواصل) يدير تظاهرة وهو يتلو «حصيلة المواجهات في منطقته» على حد تعبير الصوت الرقيق. التلفاز مشرحة كبيرة. الدم الدم. الطفل الصغير يغطي وجهه وكذلك أفعل أنا كثيراً. القتل بشع دائماً حتى عندما يكون بطولياً.
تنادى أهل المخيم ليلتها لدفن الفتى الذي خرج في الصباح وقال لأمه إذا نادى مؤذن العصر ولم يأت فلتزغرد لأن الطريق الذي سلكه أوصله بوابة الخلد. غاب موسى الطفل الذي عرفته جاراً لنا قبل أنَ يقطنوا في الحي السكني البعيد. اقتتل الكثيرون حول ولاء الفتى وكادت الجنازة تتحول إلى مقتلة الأخ للأخ لولا حكمة غابت عن الحضور طويلاً. وقف الأب ملياً أمام البوستر الجميل الذي يظهر الفتى قرب قبة الصخرة. بكى طويلاً. لم يعد ابنه البكر إلا «بوستراً جميلاً». الصمت أرحم كثيراً من القول، والغياب أرق من الحضور. أرى طيف ظلي يرسم ابتسامة شامتة لاضطراري اقتباسه في مثل هذه اللحظات. ذهبت إلى بيت العزاء.. الشعارات واليافطات ومكبر الصوت يبث صوت الخطباء. انسحبت من المكان. أسير في الدروب البعيدة .. الأزقة الذاهبة في عبث البيوت.. الليل صديق الوحدة والعتمة رديف المخفي عن العين. العين لا ترى إلا ما تعكسه لها الروح .. هذا ذهاب في مجاهيل الرحلة الطويلة التي حكمت بها العرافة على أبي وذريته، وكانت هي أول راشفي الكأس.

صباح جديد
هذه الحكاية تشبه رتوشات طفل في دفتر المدرسة الجديد. خرجت في الصباح الطازج. كان أبي في الليلة الفائتة يخط رسالته الجديدة لأخيه. الطريق من المخيم إلى المدينة رحلة النسيم بين فروج الأصابع. السائق يعبث بمؤشر راديو سيارته القديمة. لغات تتداخل وموسيقى تزج بنفسها ونشرة الأخبار لا تحمل إلا عدد الجرحى والقتلى. أقفل السائق الجهاز. في شارع يافا الذي يصل أطراف المدينة بخارجها (أو لعله يوصل القادمين مثلي بالمدينة) السدرة التي يضفي عليها الناس القداسة والتبريكات فلا تستطيع الجرافات اقتلاعها.. قبر أحد الأولياء. صوت السائق يدندن..
«أنا من هذي المدينة
ومن حواريها القديمة».
– توفيق زياد؟
– صحيح..
صوت السيدة التي تحتل الكرسي المجاور له كأنها تكمل ما بدأته سراً«وأبوس الأرض تحت نعالكم» وصلنا ميدان فلسطين . العنقاء بدت جسداً بلا ملامح. وقفت ملياً كان التمثال المعدني جاداً لا يشي

بشيء سوى أطرافه المدببة.. قافلة السيارات والمحال تنفض غبار الليل.. رائحة الفلافل تسرق بريق النافذة البعيدة حيث فتاة تعلق منشفة الحمام خمرية اللون.. الشاورما شرائح لم يمسها لهب الشواء.. تفاصيل السوق لا تعدو كونها ذكريات كهل عن مرتع صباه... سيارة الإسعاف تسير ببطء صوب الشرق. الشرطي يدرك عبث تنظيم المرور فيمضي وقته في احتساء قهوته مستظلاً بحامل الدعاية الكبيرة الذي يقول عن اللبن الطازج من شركة «تنوفا» .. مئات «صباح الخير» تراق هنا وهناك وتمتمات عديدة. حارس المصرف يدوس أزرار الجهاز الآلي.

بعض الزبائن التفوا على بائع السوس ومئذنة المسجد القديم بدت فنار ميناء آخر..الميدان صورة أخرى لعنقاء يخامرها شك في انبعاثها من رماد المعدن الذي صنعت منه.. هكذا بدت غزة في هذا الصباح العادي جداً.. بقايا راية سوداء ترفرف قرب سور البلدية..

في طفولتي كنت مغرماً بالتفاصيل. أدقق في كل شيء. أتعرف على مكوناته. كنت كما يقول أبي صورة عن عمي الكبير. الشيء الوحيد الذي كنت أصبو لتملك تفاصيله، لم يفارقني شعوري بفشلي فيه. أعرف أنني أفشل كثيراً (لا يعني دائماً) في استكناه خبايا نفسي.. تنقصني معرفة تفاصيلي أنا. علاقتي بالأشياء حولي علاقة أصفها بحميمية العاشق الذي تقبض يداه على أكثر من وهم. أما علاقتي بتفاصيلي فليست أبعد ممن يعود بفردة من خفي حنين.. لا أمل استذكار خيبتي وأنا أبحث عن أشياء كثيرة في داخلي (والاستذكار غير التذكر بوصف الأول استمناء للذاكرة) أردد كثيراً مقولة صانع أوديب الأمهر «ما أكثر العجائب في الدنيا وأغربها الإنسان». أعرف أنني مفردة في قاموس من طلاسم.

أقف في المدينة. ساندوتش الفلافل إغراء لا يقاوم. ساعة جهاز الراديو من سيارة أجرة عابرة تقول إن الوقت التاسعة صباحاً. استيقظت عند السابعة. هكذا يكون الصباح دوماً. يقوم الصغار مع الشمس (وقد يسبقونها) الحركة تسري كالدماء في أزقة المخيم. الأطفال يتجهون صوب البائع عند زاوية الشارع.. صوت العملة المعدنية وهم ينقرون بها الصحن الألمنيوم يتسلل من النافذة الوحيدة في الغرفة.

الضجيج الذي يحدثه بائع اللبن يختفي أمام صرخات اخوتي وأخواتي وهم يتقاذفون كتب ودفاتر المدرسة من حقائبهم الجلدية.. قد أعود طفلاً في مسرح الذاكرة فأراني أشقى أطفال الحارة وأراني أيضاً أكثرهم اجتهاداً في المدرسة.. هكذا كنت أجمع بين متناقضين كما يبدو لمدرس اللغة العربية الذي يحاول منذ طفولته إلى اليوم كتابة قصة عن حياة جده وأبيه في القرية التي كانت: المهرة. ينقطع شريط الذاكرة. أعود عندما تطرق أمي الباب تذكرني بلقائي مع صديقي.. اللقاء الغريب الذي ابتدعت قصته لأخرج مبكراً في ذلك الصباح. قلت لنفسي هذه كذبة بيضاء. صديقي سيقابلني عند التاسعة في المدينة. وعند السؤال عن ماهية هذا الصديق المبكر جداً قلت إنه درس معي في بيرزيت وإنني لم أره منذ فترة طويلة. في الحقيقة لم يكن في الأمر أي كذبة.

هاتفني حامد. تواعدنا على اللقاء في ميدان فلسطين لننطلق إلى معبر «المنطار». أما قولي إنني لم أره منذ فترة طويلة، فالطول قضية نسبية قد تمتد من ثانية إلى دهر سحيق. قد تبدو هذه ثرثرات أسلي فيها نفسي وأبرر فعلها كي أبدو غير ما أقول. لا مكان للقضية الأخلاقية هنا. الأخلاق قضية نسبية أيضاً. أمي كانت ستولول وتبكي وترجوني ألا أذهب لو أسررت لها نيتي الذهاب إلى ساحة المواجهات.

قد تتجامد وتتماسك إذا جاءها خبر رحيلي وقد تفقع زغرودة لكنها ستفقع بينها وبين نفسها. في النهاية هي مجرد أم فقدت ابنها ولن تفرح بموت طفل كونته من لحمها.اضطررت في هذا الصباح أن أكون عادياً رغم كل شيء. تبادلت صباح الخير مع جميع من في البيت. سكنني إحساس بأن هذه اللحظات ستصبح آخر ما يذكره الآخرون عني. هكذا أنا دوماً أرتق شباك حاضري بلحظات من ذاكرة مستلبة.
غزة فتاة تبكي «على الطالع وعلى النازل» كما ستقول جدتي. قرب قبرها لا أسمع إلا شخير الموج الّدي الذي حمل أرتال المشردين من «عروس البحر». جدتي تذهب كل مساء إلى صباح جديد وهي تقول «بكرا بترجع» قرب قبرها كانت زهرة الزمبق تتسلق الشاهد الذي يقول إنها « من يافا»حكايات الناس لا تعرف النهاية. كل خاتمة تمهد لصدر جملة قادمة، والمذيع لا يمل شعاراته الرنانة، والتلفاز لا يرحم أمثالي من بشاعة الدم، وجارتنا تطلب استعمال الهاتف للاطمئنان على حال أخيها في رفح. السلك الشائك الذي يفصل بين قارتين يجاور بيته والقذائف تخترق الصمت مباغتةً البيوت في الليل. الشظية التي خابت في
الوصول إلى جمهرة أولاده وهم يتناولون العشاء بسقوطها في زاوية البيت «هالمرة الله سلّم» حمل وعائلته ما يكفيه للمبيت في المقهى الذي يملكه في وسط المخيم. مع الندى تحمل العائلة أشياءها وتعود لتمضي النهار في البيت ليزاول هو عمله يستقبل الوافدين بحثاً عن كأس قهوة أو غلوة شاي.. حديث المقهى باحات للذاكرة .. الآن رواده من كبار السن. حديثهم عن سمسم، هربيا، دمرا، حمامة، المسمية، يافا،
المجدل، اللد.. عراق المنشية، الفالوجا.. تغلق جارتنا الهاتف مجيبة عن سؤالي عن حال أخيها ..
– الحمد لله الله سلّمها اليوم (صمت) كم مرة سيسلمها؟
السؤال الذي يجيب عليه أبو درويش وهو يحك رأسه كمن ينهمك في تفكير رواقي وهو في الحقيقة يفتش في ذاكرته عن قصة من حياته في يافا توضح الحال..
– أنت لا تعرف إلا حكايات زمان .
– سقا الله زمان.. يا ريت اللي إحنا فيه سطر في دفتر زمان.
ما أكثر حرصي على الثرثرة، وما أكثر تقلب جدتي في قبرها وأنا أريق تفاصيل حكايتها بين الفينة والأخرى. أدرك الآن أنني أغادر ربما بلا رجعة إلى بؤرة الريح.. لماذا أغيب دوماً في أتون النسيان ؟ أخاف كلما حاولت التوحد مع حاضري.
ليس انفصاماً ولا شرخاً في مكوناتي، بل تشريح محايد (والحيادية أكبر من موقف بلا لون) أو هي التصاق بالبكاء الذي أجيده وأبرع فيه.أحب سجني الذي أقرر كثيراً الرحيل منه. الرحيل من 365 كيلو متراً مربعاً. الخروج منه بتصريح، والتصريح رحلة طويلة من الانتظار والترقب. عندما دخلت جامعة بيرزيت كان الأمر لا يحتاج لأكثر من تصريح واحد للتنقل من غزة إلى رام الله، ولما تخرجت كنت أحمل في حقيبتي خمسة أنواع من الأوراق الثبوتية اللازمة لعبور حاجز بيت حانون (إيرز بلغة أخرى) من تصريح الإغلاق (لعبور الحاجز بحكم أن غزة أصبحت في حالة إغلاق أمني دائم) والممغنط وتصريح المبيت في رام الله ووووو...التصاريح تنمو والحواجز تزداد والروح تبقى على صبرها. الآن لا أملك من

أصدقائي في رام الله إلا رنين الهاتف وأصواتاً لا تنادي إلا بالسؤال عن الحال. غزة محاصرة. صديقتي اللندنية فقعت ضحكة كبيرة عندما قلت لها إن غزة سجن كبير..

– وتحبه؟

من يكره وطنه! كثيراً ما تستفزني المدينة. أشياء كثيرة تثير النفس والأسئلة جمة، لكن من يستطيع أن يكره نفسه. أحياناً أفعل. من يجرؤ على حب مخيم مثل جباليا! قلت للندنية إن المخيم أتعس ظاهرة عرفها التاريخ..

– وتحبه!

من يكره طفولته! الأماكن تسكن فينا، والتفاصيل الخارجية حدود لمعرفة لا تكتمل. الذي يبقى سحب تمر وتمطر في وعي اللاوعي المعرفي.

– من يحب سجنه؟

أنا أحب رحلتي في التيه، في البحث الأهوج عن أشياء لا علاقة لها بوجودي وهي أساسه. السبب البسيط الذي يرمي بي في هذا الالتباس هو حيادية الأشياء حولي. الموقف بناء علاقة مع الشيء أو الحدث. أنا لا علاقة لي بالدنيا حولي. كثيراً ما أشعر أنني جئت صدفة. في هذا القول كثير من الصدق رغم أني جئت بعد طول انتظار.

ظلي يقول في إحدى رسائله إن الحكمة ليست في أن توجد بل في أن تتدبر وجودك، والوجود ليس في أن تأكل وتشرب بل في أن تدرك كنه الأشياء التي تأكلها وتشربها. وهذه دعوة للمعرفة.

أحب الليل لأن به حكايات عديدة لا يَسمع رواتها ولا يَرى محدثيها. أصوات الأباتشي تقتل صوت ألفس برسلي. أختي الصغيرة أسماء تتدثر بالبكاء وصوت الطائرة عويل موت تخافه. الكثيرون من أطفال المخيم اكتشفوا أن الطائرة تختلف عن طائرتهم الورقية. صوت الأباتشي يقتل شهوة التواصل، محاولة تجوالي في ذاكرتي، بحثي عن قصة قديمة.. عن المدن التي عرفت والتي أحلم بها، أملم المكان الوحيد الذي لا يحدث فيه اختراق للجغرافيا إذ لا أساس لوجودها فيه. في مثل هذه العبارة الكثير من الصحة والكثير من المغالطة غير أن أهم ما فيها أنها بورتريه لحياتي. بورتريه جميل أبدو فيه عارياً. يسترني صمتي، فلو تحدثت لأفضت في فضح الزمن. راقني أن أحمل صورتي أعلقها على الجدار تزاحم صورة جدي وصور جدتي وصور كل من رحلوا من رفاقي. منطق المزاحمة أرهبني. تراجعت عن الفكرة، إذ أن المكان الشاغر الوحيد على جدار غرفتي تركته لبوستر جارنا الطفل الذي رحل تاركاً إمام المسجد الكبير يغرق في دموعه لأن الطفل حدثه قبل أيام عن نيته في الرحيل (والعهدة على الراوي).

حياتنا بوستر كبير في كابوس لا يعرف من بالتحديد يعيشه. كل المشاركين في معرض الفن التشكيلي الذي افتتح في قاعة العمل النسائي يحاولون إعادة إنتاج الواقع ولا يدركون أن الواقع محاولة فاشلة لإنتاج ما تجود به معرفتنا بالأشياء عن الأشياء. لا سبيل لرسم الفتى المكبل بالرصاص أو البيت المهدم بالهجر أو البلدوزر الجائع للحجارة ومتاع البيوت. نضال يتذمر كثيراً من تلامذته لأن حلمه بهم أكبر من وقع الريشة على حامل اللون. الشيء الوحيد الذي يربط الريشة بالواقع ليست اللوحة المنتجة بل تقبلنا للأشياء.

مرة عنّ لي أن أهجر العالم حولي. حاولت. غزتني الأشياء. اخترقت جدار العزلة التي فرضتها على نفسي. كان ظلي آنذاك أسيراً معي في الغرفة. لم نكن قد أبرمنا اتفاقنا الشريف بعد. جادلني كثيراً. غضبت منه لعبارة قالها. كأنه نجح في استفزازي للخروج. خرجت. كلفني غضبي جحيماً حين أقابل الناس. الجحيم هم الآخرون، والجنة هم أيضاً. أنا الجحيم وأنا الجنة. المحارب الساموراي الياباني الذي سأل الراهب عن الجنة والنار فأهانه الراهب بعدم الإجابة لأن المحارب تافه ولن يضيع وقته معه، فقام المحارب في موجة غضب بسحب سيفه من غمده ليقتل الراهب. قال الراهب لحظتها في هدوء «هذا تماماً هو الجحيم» فصعق الساموراي من الحقيقة وأعاد سيفه إلى غمده وشكر الراهب على حكمته فرد الراهب «وهذه هي الجنة» ... وعبد الوهاب والسيف «ليس له بعد اليوم أن يغمدا«..الـFM102 ظلي دائماً أكثر من يجيد استفزازي..

عليّ الآن أن أعيد الطريق إلى التفاصيل الكثيرة التي تسكنه.. المدينة! غزة كتلة الأسمنت اللامتجانسة. أشكال مائية تطوف في عيون المارين وسط الزحمة الكبيرة. المشاهدات الحسية للتفاصيل تربك وحدة المشهد وتخلخل متعة النظر. أحياء المدينة القديمة ما زال عالقاً بها تراب الجنود الذين رحلوا في الليل القريب مثلما دخلوا في النهار. بيوت المدينة كذلك. العلاقة بين المساحة والكتلة أيضاً. لا علاقة بين الوظيفة النفعية والجمال التشكيلي. عمارة شاهقة تبدو كإصبع طفل مبتور وهي تتدلى كسعف النخيل. للأمر علاقة بميت تركه الآخرون في جنازة غيره. تاريخ طويل من عدم الاستقرار والحروب خلق الضوضاء هذه. المرارة التي تنتابك وأنت تحدق في الأشياء التي تنفي بنفسها شرعيتها. غزة لا تعترف بكل ألوية العمارة. كانت المدينة مقسمة إلى حارات حسب وظائفها. لم يبق منها الآن إلا حي الفواخير. ما الذي بقي منه؟ بضعة مصانع للفخار.

يروقني كثيراً التنزه في الشارع الضيق في طريقي لمكتبة قديمة هناك. أبحث عن الرجل الذي يبيع الآنية الفخارية. مات الرجل. هكذا أظن وأنا لا أجده للمرة الرابعة. لم أسأل عنه. تفاصيل المكان ينقصها حضور ما. السوق تأخذ طابع القرن الذي ذهب. المعماري الذي صمم العمارة القادمة من طرف الشارع البعيد لم يدرك الفرق بين الرؤية والاستقرار. أو العلاقة بينهما.

الأبراج العالية تبدو عواميد نور في شارع مهجور. تجمع بين الشوق الحزين إلى العهد الذي ذهب ولا يفوتها الاقتباس من العالم الجديد. غير أن المدرك يعرف أنها لا تعترف بلوكوربوزييه ولا بأوغست بيريه والهيكل الإنشائي العقلاني ولا حتى بالباوهاوس والأحجام الصافية والعلاقات المتجانسة في عالم الفوضى. الحالة لا تخلو من انفصام. الرجل الثري يريد فيلا لا تقل جمالاً عن قصر هشام في أريحا أو

قصر الحمرا وفي الوقت ذاته يريدها على طراز الكوفنت جاردن اللندني أو حداثة فرانك لويد رايت. تضيع المدينة. فتاة بعمر التاريخ تشيخ قبل أن تتمتع بشبابها.

لا تجمع بين جديلة شعرها ووقع قدميها على الأرض. الانقطاع الفج بين البيت الذي بني قبل مئتي عام وبين الكتلة الأسمنية المسلحة يزلزل النسق العام للتفاصيل. لا يمكن أن تضع يدك في كانون النار ثم تنقلها إلى ثلاجة لتتمتع كما يقول جارنا.

(ربما يثبت الطب خطأ نظريته، غير أن نظرة شاملة إلى المدينة تثبت صحتها) كيف لي أن أسير في الدرب الذي ترسمه الرصاصة في طريق الوصول إلى جسدي. بعض أوراق الشجرة تتساقط وفحيح الريح يتسلل إلى عالم يفد إلى لحظة لا أدرك إلا غياب عالمي الخاص، عالم يسكنه البشر وتستوطنه الأشياء الجميلة التي أنشئت معها علاقات مميزة. مكتبتي. صورتان لفنانين أحببتهما وثالثة لجوليا روبرتز. شريط فيديو تخرجي من بيرزيت. بقايا رصاصة أصابتني أخرجها الطبيب فعلقتها في رقبتي. كتاب أغاني مهيار الدمشقي لأدونيس. لوحة «نساء يستحممن على الشاطئ» لبيكاسو.
طريق الوصول إلى اللحظة أشد من الفعل ذاته. أبدو مرهقاً وأنا أحاول إعادة صياغة فهمي للطريق. قبل الفعل بقليل.. الطفل الذي جاء أمه قبل يومين من رحيله يختلف معها حول المكان الذي سيعقد فيه العزاء. المجنونة (كما تصف نفسها) مازحته دون أن تدري أن ثلاثين ساعة ستفصل بين مزحها وصرختها لحظة الخبر. الطفل اشترى علبة دهان وخط على جدران المنزل اسمه شهيداً ثم ذهب إلى المفترق لتقسم الشظية رئتيه.
من كان يعرف بالتحديد علاقة الفتى بالعالم في لحظة ذهابه من منزله في أقصى حارات المخيم إلى مفترق المنطار عند تخوم غزة الشرقية. لحظة الذهاب في الأشياء حين يصبح الفعل شريطاً مفرغاً جاهزاً للتحميض. أي الصور ستخرج. ربما صورته يركض في الزقاق الذي يوصل بيته بالشارع الرئيس حيث ركب الشاحنة الكبرى. قال للسائق (وهذه رواية السائق بعد ذيوع خبر رحيل الفتى وليس قبله): إن أشجار البرتقال تبدو لامعة مع أشعة الشمس دون أن يلحظ أن البرتقال مازال في طوره الأخضر. سيضيف السائق لصحفية تهوى التحقيقات البسيطة أن الفتى صاح به عند الإشارة الضوئية ليقطع الضوء الأحمر لأنه على عجلة من أمره. وبرغم السرور الذي سينتاب القارئ إلا أن الكثيرين يدركون أن هذه الجملة الأخيرة لن تكون أكثر من العبارات التي نضيفها مجاملة لنضفي هالة القداسة والتبريك على من رحلوا فجأة. كأننا لا نستطيع ان نكون أبطالاً ونكون عاديين في الوقت ذاته لا بد أن نكون ملائكة. حتى ظلي عجز عن ملاحظة الفرق بين رؤية الشيء والتعبير عنه. كل الذين استطاعوا الحديث المسهب عن حياة الفتى الذي أصبح معجزة المخيم عجزوا أيضاً عن أن يكونوا رواة اللحظة الأخيرة. أصدقاؤه أفشل الناس في ملاحظة الفرق الهين بين رمشة العين والعالم الذي نراه حين يطبق الجفن على الجفن ونغوص في العتمة مثلي الآن..

صباح جديد .. رسالة جديدة
لقراءتها هذه المرة طعم آخر. غفوت ساعتين بعد أن أدركت الحقيقة التي جاءت تقولها. كان لهذا الصباح مذاق الشاي المثلج. بائع الكلور طاف أزقة الحارة ينادي، والناس مذعورة من نقص المواد التموينية. الجنرال الغريب يعرب في التلفاز عن قلقه من الاختراق الأخير لجدار المستوطنة.
باعث الرسالة «فاعل خير» كما يقول توقيعه. مفادها أن ظلي أصابته الرصاصة في مقتله. بعد أن قام الجند بتجريف البيارات المحيطة بالمفترق أصبح ساحة من الأشجار الميتة. رائحة الليمون ما زالت تخرج من الجذور التي لم يستطع البلدوزر اقتلاعها.. بعدها قرر ظلي الانتقال إلى ساحة جديدة.المنطار. في

رسالته التي قال «فاعل الخير» إنه كان ينوي إرسالها لولا استعجاله بالرحيل، قال.

فصل في اكتشاف الجغرافيا

المنطار حكاية جميلة سمعتها وأنا أسير في جنازة مهيبة. تقول الحكاية إن أبو المن الرجل الصالح الطاهر قد مات. وفيما يحمل الناس نعشه ليدفنوه، طار النعش ولحق به الناس وهم يتصايحون «أبو المن طار» وأخذ المكان اسمه من الحادثة.. أنا أحب الحكايات البسيطة .. تمنيت كثيراً أن يطير نعشي مثل أبو المن» وأنا كذلك. المهم أن المكان الجديد استهوى ظلي فأصبح ساحته الجديدة. يقول في الرسالة ذاتها إن الرحيل حكاية يجب أن ترويها، والذكي من يروي رحيله ولا يدع الآخرين يتحذلقون في صياغة نصه.. أما عن رحيله فيقول إن الرحلة من غزة لخانيونس لم تكن تستغرق أكثر من 25 دقيقة أما الآن فقد استغرقته أكثر من ساعة من الالتفاف من الطرق الترابية والطينية بين الحقول والبيارات. وبالمناسبة لم يخف أنه كان ينوي زيارتي في يومه الأول في الساحة الجديدة «المنطار» (يبدو أنه رحل قبل أن يطوي النَهار صفحته)

في ذلك اليوم كانت رحلته الأخيرة (والعهدة على «فاعل الخير»). عند العصر فارق الحياة. كيف يموت ظل بلا جسد. من يمشي في جنازة من. هالتني الحقيقة التي علي أن أتقبلها من الآن فصاعداً.. أصبحت جسداً بلا ظل وللأبد..

الصباح الجديد

رحلة أخرى. الصباح طازج مثل نشرة الأخبار العتيقة، وجارنا لا يمل نقل مؤشر الراديو من محطة لأخرى.. هنا لندن .. هنا القاهرة.. صوت فلسطين.. مونت كارلو .. قرفت خربشة الراديو في إبحار الأثير من موجة لأخرى. الصباح عادي جداً.. الرحلة بحث عن الزمن. اقتناص لحظة ستكون. اندلقت تفاصيل الرحلات الماضية كأن صخرة الذهاب في الغائب شبت زهرة برية في اختلاجات الروح المضطربة، والحافلة تقترب من صمتها، من حصار لعنتها الموغلة في صوت البنادق.. حفيف أوراق البيارات وأطيط

أحذية الفتية على الطين.. الصور عبارات تمر في كمبيوتر الذاكرة.. هذا الصباح عادي جداً بعد أن اعتدت أن أكون بلا ظل. الحياة جميلة إذا تعودنا على النكسات.

بكيت ظلي طويلاً ولكن ما جدوى الدمع إن كان لا يرد حقاً. والموت حق. ركبت الحافلة. في الطريق حاصرنا الجند. الحصار لغة تخلو من الأبجدية. إدراكنا أن لا مفر غير صمت الرؤيا / الرؤى .. من يرى أيامه تقصدر على عجلة أفرغت من الهواء. صمت الرؤيا حكايات بعيدة تعيدها ترويدة جدتي وهي تعزف آهات العتابا وشجن الميجانا. رفع الجندي عينيه صوب الطير في السماء، لم يكن ثمة شيء إلا ذهاب الرصاصة إلى الصدر العاري خلف شجرة الكينيا. شقت الرصاصة جذع الشجرة الهرمة.

هوى الطفل كقطرة المطر على عشب الأرض. تقابلت عيوننا. أزاح الجندي تفاصيل الموت ليصوب بندقيته نحو مجموعة أخرى من الفتيات. طالبة المدرسة التي خرجت من ضفاف المدينة إلى المفترق حملت حقيبتها

القماشية على ظهرها. رفعت عقيرتها بالحياة.ثلاثة كتب للجغرافيا واللغة والحساب ثقبت ثم طفح القلب بالماء. حملقت بالجندي الواقف أمام الحافلة. رفع بندقيته. رمى قنبلة غاز داخل الحافلة. أمسك بها السائق ورمى بها من الشباك صوب التلال الصفراء. ذهب دخانها في أفق اللازورد. داهم الجند الحافلة (..) ضربني أحدهم بكعب بندقيته. هويت في العتمة.

أبدأ من قلقي، من عجزي وقلة حيلتي، وأنا أتهجى أبجدية الماضي، وأحيك ثوباً آخر للحظة القادمة.. تدوسني عربة الراهن فلا أنا بالذي يستطيع عيش «الآن» ولا بالذي يستطيع القبض على «آن» الآخرين.. الجند يرمون بي في زنزانة. يريدون أسر قلبي في وحل الظلام، قتل مخيلتي بالأسمنت والكلمات، وأنا أجد الضوء من هدير البحر وخفق أجنحة النوارس. الجندي يطيل التحديق في جدران زنزانتي، لم يتبقَ له إلا عبور وهمه بأنني أخبئ شيئاً هناك. داهمني بالأسئلة فغزوت ضجيجه بصمتي..

على جدران زنزانتي أكتب بيان نعي ظلي. قلت فيه ما قلت. الآن أبدأ كتابة حكايتي على الجدران الأربعة.

سؤال اللندنية ...

– من يحب سجنه!

---

* روائي فلسطيني يقيم في غزة.

« الأبله» .. والجنود!

أكرم مسلّم*

تقريباً، حدث معي مثلما حدث مع «أبله» دوستويفسكي (الطفل الذي فيه، ربما)، في لقائه الأول، مع «الطبقة الراقية» في منزل عائلة محبوبته «أجلايا»؛ عائلة إيبانشتين.

لقد حذرته، «أجلايا» (وهو الغريب عن بروتوكولات النبلاء) من الإتيان بحركات تتسبب لها بفضيحة (تتوقعها بسبب ارتباكه)، وبالذات من حركة ما بيده (وهو منغمس في التنظير لفكرة أن الجمال أساس العالم)، حركة تحطم إناء خزف قديم وثمين في صالة بيتها، لقد سكنه التحذير الأخير كهاجس، فتحول إلى مطلب لا واع، وحدث أن حطم «الأبله» الإناء بحركة من يديه، وكأنه يؤدي مهمة «وطنية».

لم يحذرني والداي (كان ذلك في طفولتي المبكرة ، 6 سنوات) من إناء خزف أكسره، بل حذراني لدرجة الإلحاح من الجنود، لقد(أقنعاني) أن الجنود هؤلاء، الذين كثيراً ما أسمع عن شهوتهم للقتل... لا يتعرضون للأطفال الصغار من أمثالي، فما علَيّ إن صادفتني دباباتهم (وهي قليلاً ما تصادف أحداً في قرية نائية) إلا أن أواصل سيري بشكل طبيعي.. دون خوف أو ارتباك، وحذار.. حذار .. أن أحاول الهرب.. فهم أكثر ما يثير شبهتهم، وجود شيء أو أحد يهدد بقاءهم: الهرب.. فمعنى الهرب بالنسبة لكم، ليس المعنى المألوف وهو الخوف، أن تهرب يعني ذلك أنك تحمل شيئاً ما خطيراً، أو تنوي شيئاً ما، أو تضمر شيئاً ما.. إلخ.

في تلك الأيام بالضبط، حدث أول لقاء لي أعيه مع الجنود، وجهاً لوجه.. كنت وحيداً.. وكان الشارع خالياً.. في الطريق من بيتي في أطراف القرية (متوجهاً إلى «مركزها») .. وما أن رأيت السيارات والدبابات الرمادية، تطل من «رأس الشارع» حتى ركضت إلى الرصيف .. ووراء كومة حجارة لا تكفي لإخفاء قطين كبيرين، اعتقدت أنني اختبأت.

مرّت السيارات الرمادية، ولم تتوقف .. الجنود كانوا يقهقهون .. (هذه كانت مفاجأة .. إن يقهقه جنود يَقْتُلون!)، ابتعدت الدبابات واختفى هديرها، ايقنت أنني نجوت .. وقفت ونفضت غباري .. لكن «الحادثة» ظلت تدور في رأسي.

لم أخبر أحداً بما حدث .. فقد أخللت إلى أبعد حدّ بقواعد «الأمن الشخصي» التي لُقِّنتها طويلاً. وكذلك فأنا لم أقتنع (وقاومت عدم قناعتي) بأن الحجارة أخفتني عن عيونهم، فظللت إلى شهور أعود إلى المكان ذاته .. أعاينه وأعيد تقديراتي، وصارت لي علاقة خاصة (وكريهة) مع كومة الحجارة تلك ..

كنت أخشى أن ينظر أحد ما من أهلي أو أقراني الصغار إلى تلك الكومة .. إلى كومة تخصني، فيها سرّ ما يخصني .. رغم كونها مجرد حجارة .. كنت أخشى أن تبوح بشكل ما بهذا السرّ !.

خفت من هذه الكومة وكرهتها .. وكرهت الجنود .. في وقت لاحق غيرت تماماً معالم كومة الحجارة تلك على أرض الواقع لطمس آثار الحادثة! .. لكن الحجارة بقيت ثقيلة في الذاكرة!

ومع مرور السنين، رجّحت أن الجنود شاهدوني .. وأنهم قهقهوا سخرية أو استغراباً من سلوكي، وربما تناقشوا في أمري وأمر حجارتي .. أما أنا فحدقت بنفسي (مكوَّماً) بعيون الجنود، وحدقت فيهم بعيون طفل يكبر .. ويختلف فيه معنى (السواتر) .. ناقشت مع نفسي زاوية الرؤية .. واختلاف المشاهد باختلافها .. الأمر الذي يفشل الجنود ومرجعياتهم في مناقشته إلى اليوم.

ربما كان ذلك في العام 1978، وكانت فكرة مقاومة شعبية للاحتلال في الأراضي المحتلة تعد حلماً .. كانت هناك هوية تتبلور وتكبر «تحت الأرض»، نتابع أخبار الفدائيين الذين يأتون من خلف الحدود متسللين، وننسج حولهم الحكايات، كان العمل المقاوم في الأرض المحتلة مرتكزاً على البقاء والصمود، ويقتصر «الاشتباك» على مجموعات شابة وجامعية في الغالب، وعلى مظاهرات موسمية في المدن والمخيمات، وعلى عمليات هنا وهناك، تراكم وعياً مختلفاً يقرب المسافة ما بين الفكرة عن العدو وما بين ماهيته ..

تربيت على «صوت الثورة» الذي كنت أصغي إلى أغنياته ونداءاته في تلك الأيام، عبر مذياع أخضر مهترئ، أستمع إليه مغموراً في فراشي تماماً، في ذلك الوقت، كنت أدرك ضرورة السريّة المرتبطة بمَثَل كان يتردد كثيراً: «الحيطان لها آذان»، كنت أحتاط في الاستماع وفي التحدث عن «استماعاتي» دون أن أدرك المعنى المجازي، تماماً لمَثَل «للحيطان .. والآذان» !!

وجاء صمود بيروت، وتصادف دخول أول تلفاز لبيتنا مع مجازر صبرا وشاتيلا، أذكر الدماء والجثث المشوهة على تلك الشاشة التي تقدم كل شيء، وأذكر مشاعر الهول في عيون الكبار.

كبرت وكبرت فيّ وفي جيل أو أكثر فكرة المقاومة والرغبة فيها، نضجت اختبارات الاشتباك مع هذه «الكائنات الرمادية» التي صارت مع الوعي والتجربة ملموسة وممكنة.

في انتفاضة 1987، كَذَبت!

كنت أكبر بقليل من 16 عاماً، وكذبت، حتى انضم لـ«القوات الضاربة» التابعة لـ «فتح» .. كان أخي الأكبر «أيمن» انضم إلى هذه المجموعات منذ الشهر الأول، ولم يكن ليتقبل انضمامي أيضاً، »وشبان الانتفاضة«، ما كانوا يحبذون أن ينضم إخوة إلى دائرة المخاطرة، فسربت لهم «معلومات» تفيد أن

تنظيماً آخر من قرية أخرى «يغازلني»، وقع الشبان في «شباكي» .. فارتديت اللثام لأول مرة.. أول مرة عشت «سحر» اللثام.

اللثام قناع .. قناع متين... فها هو الاحتلال إذا (بملابساته)، يضعني مرة أخرى في مواجهة جديدة مع تغيير كبير في «زاوية النظر» ... كيف؟ كما في الاختلاف من الضد إلى ضده في زاوية نظر الطفل وراء كومة الحجارة، للجنود، وزاوية نظرهم إليه ... تختلف زاوية الرؤية بنسبة 180 درجة مع اللثام... مع اللثام، (لشاب صغير)، ينقسم العالم إلى قسمين: «ملثم وغير ملثم»؛ كل أولئك الذين تراهم في النهار بأعمارهم وتجاربهم و«مواقعهم» يختلفون تماماً تماماً، أنت تتمترس خلف قوة وكأنهم لا يدركونها.. ترى مشاعر رهبة مجهولة في عيون أناس كانوا أقوياء .. أقوياء جداً .. ترى رهبة غموضك .. ترى أيضاً حبك كرمز .. ودهشة من رمّزوك، بك .. لو كنت مجرداً ما كانوا ليبوحوا لك بشيء من هذا الخليط العجيب من المشاعر، وما كانوا ليكشفوا لك عن هذه المساحات!

حصانة اللثام... مغرية .. مغرية جداً ... وثقيلة من ناحية حجم التوقعات منك .. من قبل من صاغوك وقبلوك .. ورسموا لك سقفاً عالياً جداً، أولئك الذين جعلوا منك وهماً ليؤمنوا به، كل هؤلاء الأقوياء (بمعايير شاب صغير غير ملثم) تحولوا إلى كتل من الطاقة الجماعية، ووهبوك إمكانية إدارتها وتصريفها، لصالح ما تعنيه كرمز، من مقاومة (شكل غريب ومؤقت ونادر من أشكال التعاقد الاجتماعي).

كسرنا غولية الاحتلال ... واكتشفنا عاديته.. فبدأنا «نشتغل فيه»، وبدأ رغماً عنه يتدرج في اعترافه بنا .. أشعر أننا (كحالة انتفاضية) جابهناه بوضوحنا .. استغرق فهمه لنا طويلاً .. ذلك لأننا كنا واضحين أكثر مما يجب، كنا مثل «أبله» دوستويفسكي أطفالاً ... فكانت انتفاضتنا أقرب شيء إلى جوهر الشعر، أقرب شيء إلى المعنى ..

الاحتلال .. خفناه أولاً ... واكتشفنا عاديته .. تدرجنا في «امتحانه»، فإذا هو مثل إناء «الأبله» ... إناء من خزف.. يغري برشق الحجارة!

رام الله 23/12/2000

---

* محرر في صحيفة «الأيام» الفلسطينية.

صباحات لم يغنّها الملك داود

أحمد يعقوب*

أمامي شابان، التشابه بينهما يصل حَدَّ التوأمة، ورغم السنوات العشرين التي تبدو لكل منهما، فهما يجهدان في نقل حقائبهما بين مواسير معبر «إيرز».

نحن الآن ثلاثة فقط، نقف بين «مواسير» الحديد في «إيرز». كلما اضطر للمرور بين هذه المواسير وبين هؤلاء الجنود، تنتابني حالة من الكآبة والشعور بالدونية والنقص.. تبدأ هذه الحالة تغزوني قبل يوم أو يومين من «السفر»، أنا لا أزال عاجزاً عن استيعاب ضرورة الحصول على «تصريح إسرائيلي» منْ أجل السفر أو التجوال في بلادي!! ولم أتمكن من التعامل مع الحواجز بصفتها حدوداً بين غزة ورام الله يقول «شارون» أمام عدسات التلفزيون: «إن القصد من زيارته للقدس قبل أربعة أيام، هو إظهار عدم حاجة أي إسرائيلي إلى الحصول على ترخيص لزيارة أية بقعة في إسرائيل».. يذكرني هذا الكلام بالحكاية المعروفة «عندما يصبح القرد قاضياً ويقسّم قالب الجبن...!»

* * *

عندما عدت إلى ما تيسر من وطن، وقد جئت إلى غزة رفقة الشاعر مراد السوداني، ظننت معبر «إيرز» شبكة أنابيب نفط، أو غاز، أو مياه، أو مصنعاً كيماوياً..

حال اقترابي منها ومروري بينها اكتشفت أنها أقرب إلى منظومة الحواجز الحديدية التي يتم وضعها في مزارع تربية المواشي لتنظيم علفها ومائها، وكذلك دخولها وخروجها بشكل فردي.

«بقرة» كادت تتقمصني عندما مررت بين هذه المواسير التي أقف الآن بينها عدا مواسير البنادق في أكثر من اتجاه.

الحقائب ليست سبباً في ارتباك الشابين، إنه ضيق المسافة بين المواسير / الممر، إذ لا يمكن لأصحاب الكروش أن يمروا بينها إلاّ إذا كانت لديهم ليونة أجساد القطط..
ينتهي الممر بمثلث مصنوع من المواسير لكنه ليس كالأبواب الدوارة في مداخل الفنادق أو محطات المترو، إنه ثقيل الوزن جداً بما يثقّل دورانه ويثقل الحركة في داخله، يجعلني مثل كتلة حديدية مثبتة فيه. إلى جوار هذا المثلث نافذة زجاجية لحجرة خشبية مساحتها تقريباً (2م * 2م) تشكل مكتباً ميدانياً للتدقيق ليس بأوراق الفلسطيني انما بمشاعره وذاته. داخل الحجرة، مجندتان في العشرين من العمر بالملابس العسكرية ترتديان الستر الواقية للرصاص كأنهما توحيان بأن أجسادهما عرضة للرصاص في أي لحظة!! تجلس المجندتان بشكل يتقابل فيه ظهراهما، كُل منهما خلف النافذة الزجاجية والمشبكة بالحديد ... ثمة جهاز كمبيوتر لكل منهما، وجهازان آخران للتدقيق في البطاقات الممغنطة عدا عن جهاز التكييف. تبدو المجندة الثانية – هكذا وبلا تخمين– أنها من أثيوبيا بملامحها وشعرها المجدول بنعومة بالغة تذكرني بزميلاتي الأثيوبيات اللواتي كان يروق لي أن يشرحن ويطبقن كيف يجدلن شعورهن في ممر السكن الجامعي في سانتياغو دي كوبا، كُنَّ يقلن إن الامبراطور «هيلا سيلاسي» هو من سلالة أسد يهوذا وإن حكاية سليمان وبلقيس جرت وقائعها على «أرض الميعاد» بين الحبشة واليمن، لم يكن قد قرأن فرضية كمال الصليبي ولا تلك الصديقة الجامايكية التي تعتز بجذورها الأفريقية وتنتمي إلى جماعة «بوب مارلي» في سياق اتباع الامبراطور سليل يهوذا. وكنّ يغنين (صهيون قطار يعود إلى دربنا).
أنا الآن لا أتمكن من التحرك بين المواسير، كي أتجاوب مع الحركة المرتبكة للشابين ويصعب عليّ مد يد العون لهم في نقل حقائبهم ..
أكتفي بحركة رأسي نحو الجزء المخصص لعبور «مواطني دولة إسرائيل والأجانب» .. لا مواسير هناك، ولا شباك حديدية تؤطر المكان .. يبدو أنهم ليسوا عرضة هناك لشبح القتل الفلسطيني؟!
كثيراً ما كان أصدقائي الجنوب أفريقيين يمسحون دموعهم أثناء شرحهم لأشكال التمييز وأنهم لا يستطيعون المرور من الطرقات والممرات المخصصة لعنصريي «جوهانسبرغ».
أين أنت الآن يا «عدي رشيد» السينمائي العراقي، لتقرأ بكاميرتك الشابة «تعابير الزمان والمكان هنا..!!» ثمة ميتات كثيرة لم تصلها الكاميرات في هذا الخريف الفجّ، وحكاية الفناء الفلسطيني؟!

* * *

ترفع المجندة الآن بندقية الـ (M 16) عن فخذيها، وتنهض، تحمل بيدها جوازات سفر الشابين وأحمل ارتباكهما في أعماقي، يزداد ارتباكهما بين المواسير التي لا تسمح بأي شيء عدا الارتباك وأصحابه، من خلف النافذة تتكلم المجندة بالعبرية وبصوت عال، يوجه الشابان إليّ نظرات لم أفهمها، ربما أصبت بعدوى الارتباك والذهول!! لا أفهم ماذا يجري!! وما هو سبب صراخها، وماذا تقول هذه المجندة؟!
أحاول تهدئة نفسي وضبط أعصابي فأذهب إلى التحليل النفسي الاجتماعي بديلاً للأيديولوجي والسياسي في تفسير صراخ المجندة الذي يتراوح بين النزق والهستيريا. ربما تكون مضطرة اليوم لأن تقبع في هذا المكعب بدلاً من فضاء آخر تقضي فيه موعداً غرامياً؟! ربما تكون «الأمور النسائية» وما

يسبقها من نزق كل شهر!! ربما تكون قد تعرضت لاغتصاب في طفولتها؟!! ربما...!!
لكن الشابين يدوّران إلى الوراء، ويبدءان، بالرجوع يحملان الحقائب فوق رؤوسهما وارتباكاتهما، اضطر إلى الرجوع مسافة خمسة أمتار أو أكثر بين المواسير كي يتمكنا من المرور، اتشبث بنفسي، أوازن بين هجوم «الثور» فيّ و«تقمص البقرة» فأكظم غيظي ... أتابع مضغ «علكة اللبان»، وأمضغ معها أشياء كثيرة ... لقد اهتديت إلى مضغ العلكة كوسيلة ناجحة كلما مررت من بين هذه المواسير، فالمضغ يخفي تعابير وجهي، ويمنع تلونها بالأحمر أو بالأصفر نظرات الشابين لا تنقطع في محاكاة عيني.

*   *   *

تقف الآن المجندة أمامي بعد أن خرجت من الحجرة ... إنها قصيرة جداً.
السترة الواقية للرصاص تجعلها منتفخة كلاعبي «الرغبي» شعرها أشقر طويل وأملس، ليس مصبوغاً بالأصفر كغالبية المجندات .. عيناها دائريتان صغيرتان بلونٍ أزرق ورغم بياض بشرتها، إلا أن وجهها أصفر أو قد اصفر..
لا أفهم من العبرية إلاّ بعض المفردات اللاتينية والعربية بقليل من المعالجة ... لكنني أفهم حركة إصبع الجندية الممدودة نحوي كماسورة مضافة، ماذا بين المواسير وبيني!! وبحركة منفعلة تخطف من يدي »تصريح الدخول إلى إسرائيل، وتبقى بطاقة هويتي تهتز في يدي.
كانت «كوكو» صديقتي الجنوب أفريقية تحدثني عن السجانات في سجون جوهانسبرغ: «كن يقمن بضخ الماء في قناة فالوب للنساء، كن يوجهن الصدمات الكهربائية إلى حلمات الأثداء»، وكنت أقول لها: كانت الجنديات في ألمانيا النازية يقمن بضرب النساء المعتقلات ويقمن بتجويعهن حتى الموت، بل وباختيار من تقع عليها القرعة من أجل الموت.
تصوب الجندية الآن اصبعها وصراخها نحو الشابين، وأراهما يعودان من جديد إلى الحقائب والأمتعة والارتباكات ... صمت .. صمت ... اصفرار وجوه ... أمضغ العلكة ... ونظرات ... لا أفهم شيئاً!! لكن حزناً عميقاً .. يجرف أعماقي عندما يسألني أحد الشباب:
– ماذا تقول هذه؟! وأشار برأسه إليها بحركة من يخشى أن تفضح إيماءاته خوفه وارتباكه ... وأضاف: أنا لا أفهم!!
– وأنا أيضاً
تخطف المجندة بطاقة هويتي من يدي وتوجه صراخها نحوي، آخذ شهيقاً عميقاً أتذكر «التقيّة» الشيعية بأن أظهر عكس ما أبطن اتقاء للتنكيل وأقول لها:
– You speak English?
يأتيني زعيق بالعبرية أعتقد أنني أفهمه بـ«إخرس».
–Take it easy، هو ردّي.
ربما لم تقل لي «إخرس»، يبدو أن «زعقتها» هي صفارة إنذار!! أو كلمة سرّ!!

نحن؛ الشابان وأنا والحقائب، محاطون الآن بالمواسير، مواسير الممر، ومواسير بنادق (M 16) أحمل بيدي «ابتسامة الجدي» رواية الإسرائيلي «ديفيد غروسمان» وبين أقدامي حقيبتي الظهرية الصغيرة لأن المواسير لا تسمح لها أن تكون على ظهري أو إلى جانبي، فإما أن تكون فوق رأسي أو بين أقدامي. أوصتني عروسي أن أحافظ على ترتيب القمصان و«البناطيل»، لقد وضعتهما بعناية كي لا تذهب «كويتهما» ولا رائحة أهلي التي أرسلوها مع حقيبة هدية العرس. الجنود يتقدمون نحونا، منتفخين بستراتهم الواقية للرصاص، أمضغ العلكة وأشياء كثيرة، أسمع عبرية تتأرجح على حبال صوتية روسية، انها للرقيب وهو يتحدث مع الجندية، يوقف الحركة «الرامبوية» لجنوده ويقول: «ما في مشكلة» ويشير إلى الشابين أن يعبرا.

* * *

«نحن لا نحيا، نحن نحيا موتاً يومياً أخرس» أتذكر عبارة أدونيس هذه. وأتابع المضغ بصمت ... المكان فارغ إلاّ من الجنود والمواسير والصمت .. أنا الآن وحدي بين المواسير ... أسمع أصوات رصاصٍ شبه قريب ... ربما يكون من «المعسكر الإسرائيلي القريب من حاجز إيرز»...

اليوم هو الرابع من المواجهات بين فلسطين وإسرائيل منذ أن اقتحم «شارون» المسجد يرافقه ثلاثة آلاف مسلح (لواء مشاة خاصة).

لقد تخصص «شارون» بإبادة الفلسطينيين منذ أن كان آمراً للوحدة رقم 101 التي نفذت بقيادته مذبحة قبية، هكذا يقول «بيني موريس» المؤرخ الإسرائيلي عن مذبحة قبية، يبدو شارون في مشيته مثل «فيل الماموث» الذي يسحق كل شيء – عدا العشب – في دبيبه. لقد تخصص في انتهاك مشاعر الفلسطينيين بمن فيهم أولئك الذين لا تربطهم علاقات خاصة مع السماء أو التابوات ... أي «مونولوج» يردده شارون مع نفسه؟! القتلة في الأفلام الأمريكية لا يندمون. مع أن سبر أغوار شخصياتهم غير السوية يكشف عن تأصل الجريمة في نموذج «السايكوبات» الذي لا يرعوي، ولا يندم، وتأخذه العزة بالجريمة ..

أنا الآن بين المواسير أقف قبالة الشيك الحديدي الذي يلف نافذة الحجرة الخشبية (ربما يكون طول النافذة (1 م) وعرضها نصف متر، تدخل الجندية الحجرة، تدير ظهرها وتبدأ بحديث هادئ مع الجندية الأثيوبية: الساعة الآن التاسعة من صباح يوم الثلاثاء 3/10/2000.

أطيل النظر في الساعة.. أشعر أن التركيز في الميناء الأزرق للساعة يغنيني عن مضغ اللبان.. كانت عروسي قد أهدتني ساعة الـ(Calvin Klein) التي يتبدل لون مينائها حسب الظل والنور ..

قبل قليل ودعت زوجتي بوعد قاطع بالعودة حال اختتام الملتقى الشعري وخرجت إلى الشارع أنتظر سيارة لتقلني إلى حي الشجاعية كمحطة نحو معبر إيرز.

لغزة أسرار في حيويتها، في هدوئها، في غضبها وحنوها، كانت شوارعها خالية تقريباً وببرودة الأعصاب المعهودة عند سائقي تاكسيات غزة، أذن لي سائق السيارة بالركوب باتجاه الشجاعية ..

– صباح الخير..

– صباح الخير

وأسأله هل معبر إيرز مفتوح اليوم ويجيبني:

لقد «سرح» بعض العمال.
يبدو أنه قدّر جيداً أنني على علاقة بالثقافة وبدأ حديثاً دقيقاً جداً في وصفه لحادثة قتل الطفل محمد الدرة: «لقد قدم الشاعر مايكوفسكي في وصفه لمشاعر من تهوي مقصلة الإعدام على رأسه، إنجازاً هاماً للتحليل النفسي». ويقارن ذلك مع مشهد «إعدام محمد الدرة على الملأ» كما يقول «لقد رأى العالم حالة موت بطيئة بوقائع حية وبالتدريج، وتابع حديثه ليس عن سكرات موت محمد الدرة بل عن الحالة النفسية التي مرّ بها والد الطفل المعدوم» لقد أصيب الوالد بحالة شبه إغماء وربما مات للحظة ...!

* * *

قهقهات الجنديات الآن تقطع عليّ تركيزي على ميناء الساعة. أرى فيهما الاستعلاء البارد الذي أعدم محمد الدرة ...
أمضغ العلكة ببطء ومرارة. وفيما تتابعان حديثهما أتذكر نصائح أصدقائي بضرورة أن لا أستعجل الجنود كي لا يمددوا فترة التأخير في إعطاء الإذن بالمرور عند الحواجز.
أبدأ بالنظر إلى ملابسي ومحاولة تخيل مشاعر الأبوة عند محمد الدرة... فلا أفلح لأنني ترددت كثيراً في إنجاب أطفال لي، لقناعتي أن الأطفال هم الاستعمار الجميل في العالم والذي ندعه يستمر بلا مقاومة!!
أتذكر حالة شبه هستيرية ألمت بي عندما رأيت أخي الأصغر في حالة غيبوبة مرضية، أنظر إلى «الجاكيت» التي أرتديها وكان قد أرسلها لي «ميلاد» أخي الأصغر الذي لا أستطيع تذكره الآن إلاّ ببنطاله الأحمر القصير و(البلوفر) الأبيض وهو يمسك بيدي متلعثماً بنطق الكلمات، وبتوسلٍ طفولي ينظر إليّ من الأسفل كالذي ينظر إلى شجرة (سرو)
– «خذني معاك» يقصد أن أصطحبه في تجوالي بين شوارع وأزقة مخيم اليرموك للاجئين الفلسطينيين جنوبي دمشق.
عشرون عاماً وأكثر مضت على آخر مرة رأيته فيها، لم أتحمل «اعتصار روحي» عندما أعطاه الدكتور إبرة في العضل بعد استفاقته من الغيبوبة، أي اعتصار عصف «بروح» والد محمد الدرة أو الأبوة الإنسانية؟؟
«أتأوّه، كأنني أسحب سلكاً طويلاً من أحشائي» «يصبح الزمن الذي ينز من ثقوب الظلم، ...، مثل السم الذي يشل الجسد ويتلف الدماغ».
تقع عيناي على هذا الكلام بعد أن فتحت «ابتسامة جدي» ديفيد غروسمان. كان علي أن أتظاهر بالقراءة أمام مواصلة الجنديتين حديثهما الهادئ.
يبدو أن منظري وأنا أقرأ كان سبباً لهما لتكفّا عن الحديث، فتقدمت الجندية نحو الشبّاك الذي أقف قبالته ... جلستْ على كرسيها الدوّار خلف جهاز الكمبيوتر، وبطاقتي الشخصية والتصريح مشدودان في قبضة يدها الصغيرة.
أغلقت الرواية وبدأت أنظر إلى لوحة «الرجل والمرأة» التي وضعها صديقي الفنان التشكيلي كتصميم لغلاف الرواية، وأقرأ ترجمة حسن خضر وأتذكر أحاديث «معرفة الآخر، والحوار مع الآخر».
يصلني الآن حديث الجندية بالعبرية ... لا أدري من قال إن اللغة مرادف للأيديولوجيا ... لكنني أتذكر

أن صفات كالحضارة هي مصطلحات ثقافية وليست وراثية: فقلت للجندية: English, French, Spanish

أرى الآن ملامح وجهها وهي تأخذ بالتغير.

تتقلص العضلات فوق الفم، ترافقها حركة تنفسية، ارتفاع للحاجبين، اتساع للعينين، يتسع اللون الأصفر في الوجه فتصل ملامحها إلى حالة «التكشير عن الأنياب».

وحال اكتمال «الميتامورفوز» عندها تأخذ نفساً عميقاً، تركز عيناها في عينيّ فأرى زرقتهما تقترب إلى الرمادية، وبلكنة أمريكية أكثر من طليقة أطلقت جملاً ممزوجة بالزفير، وهذه ترجمتها:

– أنا هنا من يقول، أنا هنا من يفعل، أنا أعرف ماذا عليّ أن أفعل.

– قلت لها بالإنكليزية: ماذا حدث ...

وبصوت قويّ ردت عليّ:

– Don't tell me what I have to do.

لم أقل لها أي شيء تفعله.. فأتذكر أنني قلت لها أثناء صراخها السابق Take it easy، نهضت عن كرسيها بانفعال واضح .. ألقت بطاقتي وتصريحي فوق جهاز تدقيق البطاقات الممغنطة الموجود أسفل النافذة ويبرز جزءٌ منه إلى الخارج كي يتمكن العمال من وضع البطاقات فيه، اتجهت الجندية نحو الأثيوبية وطلبت منها سيجارة، أحاول الآن أخذ بطاقتي والتصريح لكنني لا أستطيع لأن يدي لا يمكنها أن تدخل بين الفراغ القائم بين نهاية الزجاج وبداية سطح جهاز البطاقات الممغنطة، أقوم الآن بتمرير أصابعي التي لامست البطاقة، أحاول مناداة الجندية كي تعطيني أوراقي فتأتيني لسعة كهرباء قوية مصدرها موصلات الجهاز الخارجة من النافذة عندها خرجت مني (No) كبيرة، أراهما «تنقزان» وتتغير ملامحهما، فالأثيوبية لا يمكن قراءة ملامحها، تشدان سترات الفايبر غلاس على صدورهما أكثر. نظرت هي إلى بندقيتها واقتربت من النافذة، دفعت البطاقة برؤوس أصابعها وهي تقول: OK.. OK .

*   *   *

إن روحي توجعني ... الآن ...

أسمع أصوات رصاص شبه بعيد.

أتقدم أمتاراً خمسة باتجاه جهاز التفتيش، جندي يجلس على كرسي، ويجلس معه انتفاخ سترته الواقية وبندقيته (M 16) على ساقيه الممدودتين باتجاه المواسير ..

منذ أول مرة عبرت فيها جهاز التفتيش هذا الذي يأخذ شكل إطار باب عليه أجهزة ترسل إشارات وإضاءات ... منذئذ قررت أن لا أضع حزاماً في بنطالي، وأن لا أحمل مفاتيح، وأن لا يكون في جيوبي قطع نقود، معدنيةً، وأن لا يكون في ملابسي أي شيء معدني كسحاب البنطال أو الأزرار.

كثيراً ما قالت لي جدتي: «إن الذي يضع حزاماً في بنطاله لا توجد لديه ثقة فيه» لكن ليس هذا السبب، أبقيت حزامي خلف باب غرفة نومي (لقد صار عندي غرفة نوم) انما، كي لا أعطي فرصة للجندي أن يأمرني بنزعه عدا عن نزع السترة وإفراغ الجيوب .. في المرة الأولى.. ولولا إبداء انزعاجي السافر

وتأكد الجندي أن سحاب وأزرار بنطال الجينز هي سبب انبعاث صفير وإشارات ذلك الإطار، لكان عليّ أن أنزع البنطال وأوضح ماذا تحت البنطال، رغم بطاقتي الصحافية...

الآن إنه يتحدث معي بالعبرية ..؟! هل على الفلسطينيين إتقان لغة مُحْتَليهم؟!

ولما حدثته بالإنكليزية ردّ عليّ بعربية ثقيلة:

– وين بروخ؟

– رام الله

وضعت جهاز التلفون والحقيبة الظهرية «وابتسامة الجدي» إلى جانب الإطار، وبروحي التي توجعني مررت.. قال: روخ ماكينة (يقصد بها جهاز فحص الحقائب)

– افتحها هنا .. بانزعاج واضح قلتها له.

في مرة سابقة وأنا قادم من رام الله حاملاً معي حقيبة كبيرة مليئة بكتبي .. كنت أجرها على الأرض... وكانت تصدر صوتاً مزعجاً، وعندما اقتربت من هذا الإطار سألني أحد الجنود بالعبرية، ولما لم أفهمه عاد وسألني بالإنكليزية:

– هل أنت ياباني..؟!

– Why?

– الحقيبة تتكلم ياباني ز...ز...ز...ز...ز...!!

قلت له: «لا يوجد عربات تسهل نقلها»

أجابني بعربية مضحكة:

«كُله بيشتغل عتال، ليش بيجيب عراباي، روخ ماكينة...!!»

وأمام السخرية الثقيلة كثقل الحقيبة التي أنهكتني وكادت تقطع أنفاسي، فتحتها أمامه فوراً، وبدأت أهدئ أنفاسي المتسارعة وأنا أتأمل دهشة الجنود وهم يرون أنها مليئة بالكتب فقط..

لا أنسى علامات الفرحة والتعجب التي ارتسمت على وجه أحد الجنود، عندما وقعت عيناه على قاموس صغير (جيب) (روسي – فرنسي) هدية صديق جزائري يقيم في موسكو – وبطفولة حقيقية كالتي للنساء الروسيات في حالات فرحهن القصوى أخذ القاموس كالذي يأخذ كتاباً مقدساً بين يديه وسألني:

«تي غفاريش بروسكي؟!»

أتكلم الروسية قليلاً أجبته، فتابع سؤاله:

– بفرنسوسكي؟

– قليلاً أيضاً! قلتها وأنا أنظر في رقرقة عينيه والبهجة المشوبة بحزن خفي على وجهه، كان كأنه عثر على ذكرى حبيب إلى قلبه – وبغاية اللطف «السوفياتي» قال: أغلق الحقيبة ... تفضل من هنا وأشار إلى الممر الذي ليس مخصصاً للعمال لكنه مشابه من حيث المواسير ويختلف بغياب الازدحام.

قال تفضل فيما بقيت عيناه نحو القاموس .. عندها قلت له هل تحتاجه؟! وتبادل مع الجنود نظرات لم أفهمها.

*   *   *

أخرج الآن ما في الحقيبة للجندي الذي كان سارحاً قبل قليل ويبدأ بإظهار استغرابه ودهشته أمام زجاجة العطر ومعجون الأسنان والفرشاة وربطة العنق وعلبة سجائر «مالبورو» التي طلب إحداها وقال: «أنت بروخ رام الله ...!! في طخ طخ عالطريق».

– قلت هل كل شيء OK، أقصد إن كان قد أنهى إجراءات التفتيش!!

– قال (OK).

وبروحي التي توجعني انطلقت في ممر المعبر باتجاه السيّارات التي تذهب إلى رام الله،

أدعو إلى إضراب تتوقف فيه العصافير عن الزقزقة

أدعو إلى إضراب تتوقف الرموش فيه عن الرفيف

أدعو إلى إضراب يتوقف فيه العشاق عن تبادل القبل

أدعو إلى إضراب تتوقف فيه القلوب عن الخفقان

لأسمع وقع خطوات الجنرال وهو يرحل عن المدينة...

سماعي لوقع أقدامي جعلني أتذكر ذاك المقطع من قصيدة الشاعرة النيكاراغوية جولاندا التي قيل أن قصيدتها أسقطت الجنرال «سوموزا».

والآن وحيداً أمشي ... الصمت يعيد أصداء أقدامي وربما زفراتي، حقيبتي على كتفي، «روحي توجعني»، لا أدري ماذا تقول تعابير وجهي، أشعلت سيجارة سحبت منها بشدة... أطلقت دخانها باتجاه مستنقع (المجاري) المكشوف تحت الممر الذي أمشي عليه ...

وبصوت يكاد يكون مسموعاً وجدتني أردد مطلع أغنية إسبانية:

ESTAS
SON
LAS MANIANAS ... QUE
CANTBA
EL
REY
DAVID...

وترجمتها: هي ذي الصباحات التي غنّاها الملك داوود.

أرى الجنود الإسرائيليين وضباطهم في حالة استنفار وأسرح مع الجنرالات بين الخريف والخرافة ... ما كتبه (بيساريو بيتنكور) بعد إقالته من رئاسة كولومبيا عن (الجنرال في متاهته) رواية ماركيز الشهيرة. جعلني أدرك وبتلمس شفاف معاني ما قاله الجنرال في رسالته الأخيرة: «يبدو أن الشيطان يسير شؤوني» ومضى هائماً برفقة ممرضته وسكرتيره الخاص وبعض مرافقين. بعضهم يظن أنه

مضى لتأسيس جيش جديد بينما يقول سكرتيره: «كان ينتظر قوة خفية تهبط من السماء تحمله وتعيده إلى مكتبه الذي كان يحكم من خلاله ما تعرف اليوم بخمس دول في امريكا اللاتينية، كان البريطانيون قد عاملوها بـ«فرق تسد» فصارت فنزويلا وبوليفيا وكولومبيا وكوستاريكا وبنما...

لا يعقل أن يستوي الذين يُحررون والذين يحتلون (يدعي جنرالات إسرائيل أنّهم يحررونها من الاحتلال الفلسطيني)! لهذا ربما عقدوا صفقاتهم كل مع شيطانه حتى لا تزف نهاية «الكولونيل الذي لم يعد من يكاتبه» بل إنهم يطلقون الرصاص على فصول السنة كي لا يكمل «خريف البطريك» دورته .. في خريف (1982) – نحن الآن في الخريف أيضاً – وقبل أن يدخل «بيغن» خريفه الأخير، كان قد أدخل جنرالات «غولاني» إلى خريفهم المحتوم ليتسنى لمصور الخرافة أن يلتقط صورة الخريف الأخير لـ«بيغن» مظهراً أسنانه كلها وهو يقف إلى جانب جثامين حفنة من المقاتلين الفلسطينيين في «ماسادا» الشقيف... مدعي عام جيش الخرافة وقبل فترة قصيرة ينصح حكومته بعدم الانضمام إلى المحكمة الجنائية الدولية تحت التأسيس في روما لأنه كما يقول: «جنرالات إسرائيل سيكونون أول مجرمي حرب يتلقون أحكامها». أما الخرافة فلها حكاية مع الخريف. لم يبق لـ«بيغن»، إلاّ أن يطلق شعر وجهه وربما كمسلً وحيد في عزلته الأخيرة منتظراً تساقط آخر أوراقه... وتنقلب صفحة أخرى في لفائف الخرافة.

كان («سيمون بوليفار» مثل جبل .. قاعدته شاسعة وقمته مدببة حادة ... ربما ليمرق إلى سماء المجد بسهولة أكثر) – الشاعر والمفكّر خوسي مارتي في رثاء بوليفار.

---

* شاعر فلسطيني يقيم في رام الله.